جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بالقاهرة

وَصْفُ الرَّبِيع

بين

أبِي تَمَّام والبُحْتُرِيّ

دكتور
محمد عبد الجواد فاضل

الطبعة الأولى
١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

الحمد لله ربّ العالمين ، رفع السماء بلا عمد ، وزيّنها بزينة الكواكب ، وبسط الأرض على ماء جمد ، وجعل فيها جنّات من نخيل وأعناب ، وحدائق غلبا تسرّ الناظرين ، وتفتق أذهان المتأملين .

والصلاة والسـلام على من كان صمته فكراً ، ونطقه ذكراً ، ونظره عبراً .

أمّا بعد :

فموضوع هذا الكتاب : « وصف الربيع بين أبى تمام والبحترى » ، والصّلة بين هذين الشاعرين لا تفتقر إلى تبيان ، ولا تحتاج إلى برهان : فهى صلة التلميذ بأستاذه الذى قدّم إليه من النصح والتوجيه ما يعدّ دستوراً قويماً لإحسان صناعة الشعر ، فكان الفضل للسابق وإنْ أجاد اللاحق .

ويحتوى هذا الكتاب على تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة : تناول التمهيد تعاقب الفصول ، وخاصيّة كل منها ، ومنزلة الربيع بينها ، وتناول الفصلان : الأوّل والثانى ـ وصفاً موجزاً ومركزاً لملامح الربيع عند كل من أبى تمام والبحترى ، ثم تناول الفصل الأخير ـ وهو لُبّ هذه الدراسة ـ موازنة بين الشاعرين تتعلق بوصف الربيع ، وتتضمن أوجه الاختلاف والاتفاق ، ومواطن الإبداع والإخفاق فيما أثر عنهما من نصوص تتعلق بهذا الخصوص.

أمّا الخاتمة فهي وصف موجز لما سبق بيانه مفصّلاً .

وقد حرصتُ ـ قدْر الإمكان ـ على توخّي العدْل ، وتوقّي الهوى ؛ إيماناً منّي بقول العتّابيّ : « منْ قرض شعراً أو وضع كتاباً فقد استهدف للخصوم ، واستشرف للألسن ؛ إلا عند من نظر فيه بعين العدْل ، وحكم بغير الهوى ، وقليل ماهم »(١) .

كما حرصت على تذييل الكتاب بملخصٍ وافٍ باللغة الإنجليزية ؛ ليسهل على الناطقين بها إدراك المحتوى ، فيكثر النفع ، وتعمّ الفائدة ، وعلى الله قصد السبيل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

القاهرة فى غرّة ربيع الأوّل ١٤١٧هـ
الموافق ١٧ يولية ١٩٩٦م

دكتور / محمد عبد الجواد فاضل
كلية اللغة العربية بالقاهرة

---

(١) العقد الفريد ١ /٢

تمهيد

اختلاف الفصول كاختلاف الليل والنهار ؛ فكلاهما آية من آيات الله، ودليل ساطع على عظيم قدرته، وبديع صُنْعِه .

وفى تعاقب هذه الفصول وترتيبها - بدءا بالشتاء ، فمروراً بالربيع والصيف ، وانتهاءاً بالخريف - ملمح له دلالته ؛ ففى هذا الترتيب تصوير لطبيعة الحياة ، وتوضيح لمسيرتها ؛ فكما أن الربيع « شهر ثَرَى ، وشهر ترى ، وشهر مرْعى »[1] و « تمام الربيع الصيف »[2] الذى يعقبه الخريف ، كذلك يُطْوَى سجلُّ هذه الحياة بعد أخذها كل زخرفها وزينتها .

ومن حكمة الله فى كونه أن جعل لكل فصل مزّية تخصّه ، وفائدةً لا تتحقق إلا به ، كما جعل فى أكثر هذه الفصول - سوى الربيع - ما يُتّقى منه ويُحْتَمى :

إذا حضر الشتاء فأنت شمس   وإنْ حضر المصيف فأنت ظِلٌ[3]

وفى تفضيل الربيع على سائر الفصول قال الصنوبرىّ :

إن كان فى الصيف ريحان وفاكهة

فالأرض مستوقد والجـــو تنور

---

(١) مجمع الأمثال لأبى الفضل الميدانى - تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ٢ / ١٧٣ - ط الحلبى .

(٢) نفسه ١ / ٢١٤ - أى تظهر آثار الربيع فى الصيف كما قيل : الأعمال بخواتيمها .

(٣) نفسه ٢ / ١٧٨

وإن يكن فى الخريف النخل مخترفاً
فالأرضُ عُريانة والجـــوّ مقرور(١)

وإن يكن فى الشتاء الغيث متصلاً
فالأرض محصـــورة والجوّ مأسور

ما الدهر إلا الربيع المستنير إذا
أتى الربيع أتاك النَّوْرُ والنـــور

فالأرض يا قوتة والجـــو لؤلؤة
والنبت فيروزج والمـــاء بلّور(٢)

ووصف ابن وكيع الفصول الأربعة فى أرجوزة فقال(٣) :

عندى فى وصف الفصول الأربعة مقالة تغنى اللبيب مُقْنعه
أما المصيف ، فاستمع ما فيه من فَطِن يُنْعِمُ سامعيه
فصل من الدهر إذا قيل حَضَرْ أذكرنا بحرّه نار سَقَرْ
يظلّ فيه القلبُ مُقْشَعِرًّا والأرض تشكو حرّهُ المضرّا
أوّله فيـه نَدَى مُنْغَصّ كأنّه على القلوب يقنص
يلْصَقُ منه الجِلْدُ بالثّياب وَيَمْلَقُ التراب بالأثواب
حتى إذا ما طرّدَتْه الشمسُ وفرحتْ بأن يزول النفسُ
فتّحت النـــارُ لنا أبوابَها وشَبّ فيها مالكٌ شهابَها

---

(١) مخترفاً . مجنى الثمار ، يخترف فيه أطايب الرطب . مقرور : بارد .

(٢) ديوان الصنوبرى ـ حققه الدكتور / إحسان عباس ص ٤٢ ـ القصيدة ٣٤ دار الثقافة ـ بيروت ـ لبنان ١٩٧٠ م

(٣) نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى جـ ١ ص ١٧٩ ـ ١٨٣ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب .

حَرٌّ يحيلُ الأوجُهَ الغُرَّانا ... حتى تُرَى الرومُ به حُبْشانا
يعْلُو به الكَرْبُ ويشتدّ القلقْ ... وتنضح الأبدانُ فيه بالعرقْ
تُبصِرُه فوق القميص قد عَلاَ ... حتى ترى مُبْيضَّه مُصندَلا(١)
إن كانَ رَثًا ، زاد فى تمزيقه ... أو مستجدًّا ، جَدَّ حبل زيقه(٢)
ثم يُعيدُ الماء نارًا حاميه ... يزيدُ فى كَرْب القلوب الصادية
شاربُه يكْرَعُ فى حميم ... كأنه من ساكنى الجحيم
يُنسيه ما يلقى من التهابه ... أن يحمد الله على شرابه
حتى إذا أعيا ، انقضى نهارُه ... وأرخيتْ من ليله أستارُه
تحرّكتْ فى جُنحه دَواهى ... سارية وأنت عنها لاهى
من عَقرب يسْعى كسعى اللصِّ ... سِلاحُها فى إثره كالشِّصِّ(٣)
وحيّة تنفثُ سُمًّا قاتلاَ ... تَزوّدُ الملسوعَ حتفاً عاجِلاَ
تُبصِرُ ما بجِلْدِها من الرَّقَشْ ... كوجنة مصفرّة فيها نَمَشْ(٤)
لو نهشَتْ بالنَّاب منها الخضِرا ... ألفَيْتْ منه الحياةَ نشْرا
فلا تقلْ إن جاء يوماً أهلاَ ... فلمنةُ الله عليه فَصْلاَ

***

---

(١) مصندل : الصندل : خشب أحمر ومنه الأصفر .

(٢) زيق القميص بالكسر ما أحاط بالعنق منه .

(٣) الشص : بالكسر حديدة عقفاء يصاد بها السمك ويفتح واللص الحاذق

(٤) الرقشاء من الحيات المنقطة بسواد وبياض : القاموس المحيط مادة « رقش » . النمش : محركة نقط بيض وسود أو بقع تقع فى الجلد تخالف لونه : القاموس المحيط مادة « نمش » .

حتى إذا زالَ أتى الخريفُ فَصْلٌ بِكُلٍّ سوأةٍ معروفُ
أهونه يسرع فى حلّ الجسدْ وهو كطبعِ الموتِ يُبْسٌ وبَرَدْ
يَجْنِى على الأجسام من آفاته وأرضه قرعاء من نباته
لا يمكنُ الناسَ اتقاء شَرِّه ولا خلافُ بَرْدِه وحَرِّه
تُبْصِرُه مثلَ الصّبىِّ الأرعنِ مِن كثرةِ العُشّاقِ والتلوُّنِ
فأنت منه خائفٌ على حَذَرْ لأنه يمزُجُ بالصَّفْوِ الكدرْ
أحسَنُ ما يُهدِى لكَ النَّسيما يَقلبه فى ساعةٍ سَمُوما
وهو على المعدودِ من ذُنوبهِ خير من الصيف على عُيوبهِ

***

حتى إذا ما أقبل الشتاء جاءتْكَ منه غُمَّةٌ عَمْياء
لو أنه رُوحٌ ، لكان فَدْما أو أنه شخص لكان جهما
يلقاك منه أسَدٌ يزيرُ له وعيدٌ وله تحذير
تأتيك فى أيامه رياح ليس على لائمها جُناحُ
حَرَاكها ليس إلى سُكون تضرُّ بالأسماع والعيون
يحدُثُ مِنْ أفعالها الزكام هذا إذا ما فاته الصُّدَام(١)
ثم يليها مطرٌ مُدَاومُ كأنه خَصْم لنا مُلازِمُ
يقطعنا بعضاً عن الطريق وعن قضاء الحقّ للصديق
ورُبّما خَرَّ عليك السقفُ فإن عفا عنك أتاك الوكْفُ(٢)

---

(١) الصدام ككتاب : داء فى رؤوس الدواب ولا يضم وإن كان هو القياس: (القاموس المحيط) .
(٢) الوكف : جاء فى القاموس المحيط : وكف البيت يكف وكفاً : قطر

وإنْ أردتَ في النهار الشُّرْبا ... فيه فقدْ قاسيْتَ خطْباً صعْبا
واحتجْتَ أن توقد فيه نارَا ... تُطيرُ نحوَ الحَدَقِ الشرارَا
يترك مُبْيضّ الثياب أرْقطا ... يحكى السَّعيدىَّ لك المنقطا
وبعــــد ذا تُسدِّدُ النِّقابا ... من خوفه وتغلقُ الأبوابا
نعم ، وتُرخى دُونه السُّتورا ... حتى ترى صَبَاحَهُ دَيْجورا
وإنْ أرَدتَ الشُّرْبَ فى الظلام ... عاقك عن تناوُل المُدام
حَسْبُكَ أن تندَسَّ فى اللحاف ... من خشية البرْدِ على الأطراف !
ورَعْدُه يشْغَلُ عن كل عملْ ... ويُؤْثِرُ النومَ ويَسْتحلِى الكسلْ
حتى إذا جئْتَ إلى الرُّقادِ ... نِمْتَ على فَرْشٍ من القتاد
إن البراغيثَ عذابٌ مُزعجُ ... لكلِّ قَلْبٍ وجِلْدٍ ينضجُ
لا يسْتَلِذُّ جِلْدُكَ المضاجعا ... كأنما أفرشَـــهُ مباضعا
تمنحَّ فضْلاً فوق ما ذممْتُهُ ... لو أنه يظهرُ لى ، قتلْتُهُ
حتى إذا ما هُوَ عنّا بانا ... وزال عنّا بعضُه ، لا كانا !

***

جاء إلينا زَمنٌ منُ الربيعْ ... فجاء فَصْلٌ حَسَنٌ الجميع
لبرده وحرِّه مقْـــــدارُ ... لم يكتنفْ حدَّهما إكْثارُ
عُدِّل فى أوزانه حتى اعتدلْ ... وحُمِد التفصيلُ منه والجُمَلْ
نهارُهُ فى أحْسَنِ النهارِ ... فى غاية الإشراق والإسفارِ
تضحكُ فيهِ الشمسُ من غير عجبْ
كأنها فى الأفْق جامُ من ذَهبْ (١)

---

(١) الجام – فى القاموس المحيط – : إناء من فضة .

وليـــلة مُتَنَاطَفُ النسيم ... مُقوّم فى أحسن التقويم
لبدره فَضْلٌ على البـــدور ... فى حُسْنِ إشراقٍ وفَرْطِ نورِ
كجامةِ البلورِ فى صفائها ... أذابت الجـــرادَ فى نقابها
كأنها إذا دنتْ منْ بدْره ... جَوْزاؤه قبلَ طُلُوعِ فجْره
دُومِيَـــــــةٌ حُلَّتُها زَرْقاءُ ... فى الجيد مِنْها دُرَّةٌ بيضاءُ
هذا وكم تجمعُ منْ أمورِ ... إطْراء مُطْرِبِها من التقصير
فيه تظلّ الطـــير فى ترنُّم ... حاذقةً بالّلحنِ لم تُعلَّم
غنـــاؤُها ذو عُجمةٍ لا يفهمُهْ ... سامِعُه وهو على ذا يفرمه
من كُلِّ دُبْسِيٍّ له رَنينُ ... وكلُّ قُمْـــرِيٍّ له حنينُ(١)
فى قُرْطُقٍ أعجلَ أن يُوَرَّدا ... خاط له الخياطُ طوْقاً أسْوَدا(٢)
تُبْصِرُهُ منـه على الحيزوم ... كمثل عِقْدِ سَبَجٍ منظومِ(٣)
هـذا وفيه للرِّياض منظرُ ... يُفشِى الثرى منى سِرِّه ما يُضْمِرُ
سِرٌّ نبـــاتٍ حُسْنُهُ إعْلانُهُ ... إذا ســـواه زانه كِتْمانُهُ
فيه ضُروبٌ لِنبات الفضِّ ... يحـكى لباس الجندِ يوم العرْضِ
من نرجِسٍ أبيضَ كالثُّفُورِ ... كأنه مخانق السكافُور
ورَوْضةٍ تُزْهِرُ من بنفسج ... كأنها أرضٌ من الفيرُوزَج

---

(١) الدبسى : طائر لونه بين السواد والحمرة (أدكن) يقرقر والقمرى : ضرب من الحمام حسن الصوت .

(٢) القرطق : كجندب : لبس معرب كرته وقرطقته فتقرطق ألبسته إياه فلبسه .

(٣) الحيزوم : ما استدار بالظهر والبطن أو ضلع الفؤاد وما اكتنف الحلقوم من جانب الصدر .

قدْ لبستْ غُـــلالةً زَرْقاء وكابدَتْ بلونهـــا السماء
يضحك منها زهرُ الشّقيق كأنه مـــــداهنُ العقيق
مُضمَّناتٍ قطعاً من السَّبَجْ قد أشرقت من احمرارٍ ودَعَجْ
كأنما المحمرُ فى المسْوَدِّ منهُ إذا لاح عُيونُ الرُّمْد
وارْم بعينيك إلى البَهارِ فإنه من أحسَنِ الأزهارِ
كأنه مداهِنٌ من عسْجَدِ قد سُمِّرتْ فى قُضُب الزبرجد
فانْهضْ إلى اللهوِ ولا تخالفِ فلَسْتَ فى ذلك بالمعنَّفِ
واشْرَبْ عُقاراً طال فينا كونها يصفرُ من خوفِ المزاج لونُها

***

دونَكَ هذى صِفَةُ الزمانِ مشْروحةً فى أحسن التِّبْيانِ
وارْضَ بتقليدىَ فيما قُلْتُهُ فإنّى أدْرَى بما وصَفْتُهُ

وبعد هذا الوصف الشامل والدقيق لابن وكيع ، والذى تضمّن منزلة الربيع بين غيره من الفصول ، لا غرابة أن يرى أبو نواس فى الربيع طقساً يبهر العقول ، وزينة تحير الأبصار :

طاب الزمان وأورق الأشجار ومضى الشتاء وقد أتى آذار
وكسا الربيع الأرض من أنواره وشياً تحار لحسنه الأبصار(١)

---

(١) ديوان أبى نواس ـ ضبط معانيه وشروحه وأكملها إيليا الحاوى ج ١ ص ٣٥٦ ـ منشورات دار الكتاب اللبنانى ـ الطبعة الاولى ١٩٨٣ م

وأكّد أبو العلاء تفرّد الربيع فى مزيته فقال فى إحدى رسائله تهنئة بمولود : « ومن سعادة القادم إلى هذه الدار أن يستقبله الربيع ضاحكا فى وجهه ، محييا بورده وزهره ، مهديا إليه ريّا روضه ؛ لأن آذار وأخاه الفتيان من شهور السنة ، والمبتسمان فى عبوس الأزمنة »[١] .

والآن ، وبعد هذا التمهيد نقف على وصف موجز ومركز للربيع عند أبى تمام .

(١) رسائل أبى العلاء المعرى - الرسالة رقم ٣١ ص ١١٣ - طبعة مكتبة المثنى ببغداد .

الفصل الأول

وصف الربيع عند أبي تمام

كان أبو تمام شاعر المعانى ، وكان من أقدر الشعراء على التجديد فى ذلك وقد وردت له أبيات فى وصف الربيع تزكى ما ورد فى التمهيد من كون هذا الفصل أفضل أوقات الزمان قاطبة ، ولم لا يكون كذلك وهو شباب الدنيا الفاتن البسّام ، وكل ما فيه وكل جوّه حسن وبهاء ؟[1] :

إنّ الربيع آثر الأزمان ... لو كان ذا روح وذا جُثمانِ
مصوّراً فى صورة الإنسانِ ... لكان بسّاماً من الفتيان
بُوركت من وقت ومن أوانِ ... فالأرض نشْوى من ثرى نشوان
تختالُ فى مُفوّف الألوانِ ... فى زاهرٍ كالحَدَقَ الروانى[2]
من فاقع وناصع وقانِ ... عجبتُ من ذى فكرة يقظانِ
رأى جفون زهرة الأفنانِ ... فشك أن كل شىء فانِ[3]

وقد وصف الآمدىّ هذه الأرجوزة بأنها رديئة شديدة الاضطراب وأورد له أبياتاً أخرى يقول فيها :

---

(١) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحترى الآمدى تحقيق / الدكتور/عبد الله حمد محارب ج ٣ ـ القسم الثانى ص ٦٥٣ ـ الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ ، ومحاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للراغب الأصبهانى ج ٤ ص ٥٦٨ ـ منشورات مكتبة الحياة ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٩٦١ م

(٢) يقال : برد مفوف إذا كان رقيقاً أو فيه خطوط بيض النواظر . الروانى : جمع رانية ، من رنا يرنو ، وهو إدامة النظر إلى الشىء .

(٣) هناك رواية ثانية « زهرة الألوان » : محاضرات الأدباء ٤ / ٥٦٨ .

كأن السَّحابَ الغُرَّ غَيَّبنَ تحتها حبيباً فما ترقى لهن مدامعُ
رُبى شَفَعت ريح الصَّبا لرياضها إلى الغيث حتى جاد وهو هوامعُ
فبِشْرُ الضحى غَدْواً لهُنَّ مضاحكٌ
وجَنْبُ الثرى ليلاً لهُنَّ مُضاجِعُ
كساك من الأنوارِ أبيضُ ناصِعٌ
وأصفرُ فاقع وأحمــــرُ ساطِعُ

ثم علق (الآمدىّ) عليها بقوله :

« والأبيات الثلاثة صالحة ، وهــذا البيت أتيتُ به من أجلها ، لا طائل فيه[1] .

وأبو تمام يصور الربيع ـ فى أحد أبياته ـ معنياً بالروض ، متأنقاً فى ترتيبه كأنما أهدى إليه من الثياب المنمقة ألوانا :

عُنى الربيعُ بروضِه فكأنما أهدَى إليه الوشى من صَنْعاء[2]

ومن أحسن ما صوره فى هذا الفصل التعبير عن أحاسيس الطير ، وترنمها فوق الأغصان شاديةً . . ومن ذلك ما قاله[3] فى مقارنة بين ما كان يعانيه من هم وحزن . . وبين ما لاحظه على قمرىّ وقمرية من تبادل رحيق الهوى فى سعادة وحبور . . وإن كنت آخذ عليه فى البيت الأخير إحياءه صورة

(١) الموازنة جـ ٣ ـ القسم الثانى ص ٦٥٢

(٢) ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى تحقيق / محمد عبده عــزام ١ / ٢٥ ط دار المعارف بمصر .

(٣) المصدر نفسه ٢ / ١٤٨

جاهلية تتمثل فى طواف الفتيان العذارى حول الصنم « دوار » مما قد يدل على إفلاسه :

غنّى فشاقك طائر غرّيدُ | لمّا ترنّم والغصونُ تميدُ(١)
ساقٌ على ساقٍ دعا قُمريّة | فدعتْ تقاسمه الهوى وتصيدُ(٢)
إلفان فى ظلّ الغصون تألفا | والتف بينهما هوى معقودُ
يتطعّمان بريق هـــذا هذه | مجّاً وذاك بريق تلك معيدُ(٣)
يا طائران تمتعـــا هنّيتما | وعما الصّباحَ فإننى مجهودُ
أبكى وقد سمتِ البروق مضيئةً | من كل أقطار السماء رُعودُ
واهتزّ ريعان الشباب فأشرقتْ | لتهلّل الشجر القوى والبيدُ
ومضت طواويس العراق فأشرقتْ | أذنابُ مُشرِقةٍ وهُنّ حُفُودُ(٤)
يرفُلْنَ أمثال العذارى طوّفاً | حول الدّوار وقد تدانى العيدُ(٥)

وهذه الأبيات تنبعث منها علامة استفهام : إذ كيف يبدو الشاعر مهموماً حزيناً والطبيعة من حوله — كما وصفها — غصون تميد ، وطيور تترنم ، وتتبادل رحيق الهوى فى سعادة وحبور ؟

ألم تكن هذه اللوحة الفنّية المتناغمة كفيلة بإذهاب غمه ، وإدخال السرور على نفسه ؟

---

(١) شاقنى : هاجنى .
(٢) ساق على ساق . الأولى ذكر القمارى ، والثانية جذع الشجرة .
القمرية : ضرب من الحمام حسن الصوت .
(٣) مجاً : نصب على المصدر أى يتمججان مجاً أى كل واحد منهما يتطعم ريق صاحبه .
(٤) حفود : جمع حافد وهو الخادم .
(٥) يرفلن : يجررن أذيالهن ويتبخترن .

لعلنا نجد الجواب أو نقترب منه فى قول أستاذنا المرحوم الدكتور / عبد الرحمن عثمان : « ... فأبو تمام إذ يصف الربيع وروضه ، إنما كان يغنى لنفسه خالياً إليها من دون الناس جميعاً ، وهى مقبلة إليه وحده من دون الناس جميعاً ، وما يكاد الشاعر يجتمع مع نفسه ، وما يكاد يقبل كل منهما إلى صاحبه ، حتى تصيح بهما النوى ، ويباعد مابينهما عوز ملحّ إلى كسب المال ، فينفصلان فى ألم ، ويفترقان على كره :

بنفسى أرضُ الشّام ، لا أيمن الحِمى
ولا أيسَرُ الدَّهْنا ولا وسَط الرَّمْلِ
عدتْنى عنكمْ مكرهاً غُرْبةُ النّوى
لها طَرْبةٌ فى أن تُمرّ ولا تُحْلِى
أخمسةُ أحوالٍ مضت لمغيبه
وشهْرانِ بل يومانِ نِكْلٌ على نِكْلِ ؟ !
نأيت فلا مالاً حَوَيْتُ ولم أُقِمْ
فأمْتِعَ ، إذ فُجِّعتُ بالمالِ والأهْلِ (١)

ولهذا جاء شعره فى وصف الربيع قريباً فى الجودة من شعره فى الرثاء والمدح ، ولو أن أبا تمام كان غنياً كما يريد لنفسه ، لأبدع فى وصف الربيع وزهوره أيّما إبداع ؛ لأن مفاتنها قريبة إلى طبعه ، ونابعة من أغوار نفسه .. » (٢) .

(١) ديوان أبى تمام ٤ / ٥٢٢

(٢) الادب فى عصره الذهبى للدكتور / عبد الرحمن عثمان ص ١٦٧ - ١٦٨ - مطبعة المدنى - ١٣٨٢ هـ - ١٩٦٣ م

فتنعم أبي تمام بالربيع لم يخل من شائبة تشوبه وتعكر صفوه ، ومن هنا ندرك السر فى ذمّه الرّوض حينما كان يمدح أبا زيد كاتب عبد الله بن طاهر ويشكر سعيه له فى حاجة ويسأله إتمام ذلك :

قدْلان أ كثر ما تريدُ وبعضُه خَشِنٌ وإنى بالنجاح لواثقُ
فى الروض قُرّاصٌ وفى سيل الرُّبا
كدرٌ وفى بعض الغيوث صواعق(١)

فذكر « القراص » هنا كالذّامّ له ؛ لأنه قرنه بالكدر فى السيل والصاعقة فى الغمام .

ولأبى تمام قصيدة فى مدح المعتصم خرج فيها على التقليد العربى المعنىّ بوصف الديار والأطلال ، فوصف الربيع فى طريقه إلى الممدوح متخذاً من جمال الطبيعة ــ آن ذاك ــ رمزاً لعصر المعتصم ، ومشيراً إلى أن هذا الربيع لم يأت مثله منذ مائتين وتسع عشرة سنة للهجرة فى كثرة إثماره ودلائل إنعامه ، وعظم حسنه ؛ وذلك ببركة الممدوح وقيامه مقام الربيع فى ازدهار الحياة فى عصره ، وبمقدم هذا الربيع صارت الحياة مترفة لينة ، وصار نبت الثرى مزهواً بجماله .

وقد حرص أبو تمام منذ البداية على التنويه بفضل الشتاء ؛ فكثيراً ما آسى البلاد وأصلحها بما أفاضه عليها من مطر غزير ، وماء منهمر أحيا به الأرض بعد موتها ، فصارت خضراء وارفة الظلال والثمار ، وصاغ بطن الأرض لظهرها أزهاراً فاتنة الأشكال ، والألوان ، والرائحة ، تسُر بها النفوس وتبتهج لها القلوب ، وهذه الأزهار تترقرق بين أوراقها قطرات الطلّ فكأنها

(١) ديوان أبى تمام ٢ / ٤٥٢

عين تحدّر دمعها ، وتتحرك الأزهار فيخفيها الجميم — (تكاثف النبات والأشجار) — ثم ترتد فى حركتها فيزول عنها وتراها الأعين فيختل إليك أن هذه الأزهار — فى اختفائها وظهورها — فتاة عذراء ، تستجمع شجاعتها فتبدو تارة ، ويستولى عليها الحياء فتختفى تارة أخرى .

وقد أصبحت الوهاد والرُّبا تختال جميعها فيما ألبسها الربيع من حلل تزهو بألوانها المصفرّة والمحمرّة كأنها البرود اليمنية والمضرية ، فضلا عن ذلك النبت الأبيض المصفرّ الذى يخيّل إليك — من صُفرته وغضارته — أنه دُرٌّ صافٍ شقق ثم صُبغ بالزعفران ، وكذلك النّبت المحمرّ الذى يبدو وكأن الهواء صبغه بلون العُصفر .

ولم ينس أبو تمام أن يحدثنا عن طقس الربيع بصحوه وغيمه ، وشمسه وقمره ، فإذا كان الصحو رأيته غضاً ندياً مؤذناً بأن المطر سيعقبه ، وإذا جاء المطر تَبيّنت منه أنه يقلع ولا يدوم ، وقد خالط بياضُ الزهر والأنوار بياض النهار ، وغلب ضوءَ الشمس حتى صار النهار كأنه مقمِر لا مُشمس ؛ لأن الزهر من كثرته وخُضرته الضاربة إلى السواد قد نقص من ضوء الشمس حتى صارت كضوء القمر ؛ ولذا كان هـــذا الوقت من العام فرصة سانحة للتمتع والتأمل ، فقد خلق الله الدنيا معاشاً للورَى : ليقتات منها أهلها ، فإذا جاء الربيع لم يكن هناك إلا النظر إلى محاسنها وأنوارها ومبادى ثمارها .

وفى نهاية الوصف يستلهم الشاعر العبرةَ من تنوع الفصول ، واختلاف أشكال الزهور ، ويعلن أن هذا المنظر البهيج إنما هو من صنع الله الذى أتقن كل شىء ، وهو الذى يُغيِّر ولا يتغيّر ، وفى كل هذا يقول أبو تمام[1] :

---

(١) الموازنة ج ٣ القسم الثانى ص ٤٤٥ ، وديوان أبي تمام ج ٢ ص ١٩١

رقّت حواشي الدهر فهي تمرمرُ — وغدا الثرى في حَلْيه يتكسرُ
نزلت مقدّمةُ المصيف حميدةً — ويدُ الشتاء جديدةٌ لا تكفرُ
لولا الذي غرسَ الشتاء بكفّه — لاقى المصيفُ هشائماً لا تثمرُ
كم ليلةٍ آسى البلاد بنفسه — فيها ويوم وبلُه مثعنجرُ
مطرٌ تذوقُ الصحوَ منه وبعدَه — صحوٌ يكادُ من الغضارة يُمطِرُ[1]
وندًى إذا ادّهنتْ به لِمَمُ الثرى — خِلْتَ السحابَ أتاه وهو معذِّر
غيثان : فالأنواء غيث ظاهرٌ — لك وجهُه والصحوُ غيث مُضمَرُ[2]
أربيعنا في تسع عشرةَ حِجّةً — حقاً لهنّك للربيع الأزهرُ
ما كانت الأيام تُسلَبُ بهجةً — لو أنّ حُسْنَ الأرض كان يعمّر[3]
أولا ترى الأشياء إنْ هي غُيِّرتْ — سمجتْ وحُسْنُ الأرض حين تُغيَّر
يا صاحبيّ تقصّيا نظرَيكما — تريا وجوه الأرضِ كيف تَصَوَّرُ
تريا نهاراً مُشمِساً قدْ شابه — زَهْرُ الرُّبا فكأنما هو مقمرُ
دُنْيا معاشٍ للورى حتى إذا — جُلِيَ الربيعُ فإنما هي منظرُ[4]
أضحتْ تصوغ بطونها لظهورها — نَوْراً تكادُ له القلوب تُنوِّرُ
من كلّ زاهرة ترقرق بالندى — فكأنها عينٌ إليه تحدّرُ[5]
تبدو ويحجبها الجميمُ كأنّها — عذراء تبدو تارةً وتخفّرُ

(١) في الديوان : « يذوب الصحو منه » .
(٢) في الديوان يقع ترتيب هذا البيت بعد الخامس .
(٣) في الديوان : « حسن الروض » .
(٤) في رواية ثانية « جاء الربيع » .
(٥) في الديوان : « إليك تحدر » .

حتى غَدَتْ وَهَدانُها ونِجادُها فِئتين فى حُلَلِ الربيع تَبخْتَرُ[١]
مُصفرةً مُحمرةً فكأنّها عُصَبٌ تيمّنَ فى الوغَى وتمضّرُ
من فاقع غَضّ النَّبات كأنه دُرٌّ يُشقّقُ قبلُ ثم يُزعْفرُ
أو ساطعٍ فى حُمرةٍ فكأنّما يدنو إليه من الهواء مُعصْفِرُ
صُنْعُ الذى لولا بدائع صُنْعِهِ
لم يُلفَ أصفَرَ بَعْدَ إذْ هُو أخضَرُ[٢]

وللآمدىّ تعليقات على بعض هذه الأبيات أبينها على النحو التالى : حينما قال أبو تمام :

مطر تذوق الصحو منه وبعده صحو يكاد من الغضارة يمطر

نقل التبريزىّ فى النظام تعليقاً للآمدىّ على هذا المعنى أكثر تفصيلا والراجح أنه نقله من كتابه « شرح معانى أبيات أبى تمام » وقال : قال الآمدى : هذا بيت يصحف الناس فيه ، فرواه قوم :

« مطر يزوق الصحو منه » ورواه أخرون : « يذوب الصحو منه » وهو أعظم خطأ ، والصواب : « تذوق الصحو منه » ؛ لأنه يصف مطر الربيع وطيب الوقت ، أى أن المطر إذا جاء تبيّنْتَ منه أنه يقلع ولايدوم ، وإذا كان الصحو رأيته غضاً ندياً طلاً مؤذناً بأن المطر سيعْقبُه ، و« تذقو الصحو منه » أى يُحَسّ فيه وتتذوقه منه »[٣] .

(١) الديوان : « فى خلع الربيع » .
(٢) فى الديوان : « ماعاد أصفر » .
(٣) الموازنة ج ٣ ـ القسم الثانى ـ هامش ص ٦٤٧

وحينما قال أبو تمام :

أولا ترى الأشياء إنْ هي غُيِّرتْ   سَمُجتْ وحُسْنُ الأرض حين تُغيَّر

قال ابن المستوفى : قال الآمدى : هذا مما يُسأل عنه من معانيه ، فيقال : ما هذه الأشياء التي إن غيِّرت سمجت ؟ وليس كل شيء تلك حاله ، بل من الأشياء ما إذا غيِّر حسن ، ولسنا نرى الأرض تحسن في كل الأحوال إذا غيِّرت ، بل قد تتغيَّر إلى القبح ، مثل أن تنضب مياهها ، ويجف نباتها ، ونحو ذلك من التغييرات القبيحة ، فيقال : إنما أراد جديد الأرض — وهو وجهها — إذا لم يكن فيه ماء ولا نبات ، ولا أنهار ، ولا أشجار ، ولا أبنية ، فهو مقشعر قبيح ، فإذا تغيرت الأرض ، فإنما تغيرها إلى النبات ، وإلى هذه الأشياء فتحسن ، وكلّ ما على ظهر الأرض من هـذه الأشياء إذا تغير فإنما يتغير إلى التلاشي والذهاب فيقبح ويسمج ، وهذا معنى صحيح لا يعترضه ما يفسده ... »[1] .

وحينما قال أبو تمام :

ياصاحبيّ تقصيا نظريكما   تريا وجوه الأرض كيف تُصور
تريا نهاراً مشمساً قد شابه   زهر الربا فكأنما هو مقمرُ

قال الآمديّ :

« وقد أنكر عليه قوم وقالوا : إنما أراد أن النهار المشمس — لصفرة الزهر — صار كأنه مُقمر ، وهذا غلط ؛ لأن صفرة الزهر مع ضوء الشمس مما يزيد في ضياء النهار ، وكثرة الشعاع ، فكيف يجعل ضوء الشمس الذى قد زاده قوة وقوعه على صفرة الزهر وازداد به إشراقاً ولمعاناً مشبهاً لضوء

(١) الموازنة جـ ٣ ـ القسم الثانى ـ هامش ص ٦٤٧ - ٦٤٨

القمر بالليل ، قالوا : وإنما كان غرضه بمشمس من أجل قوله : « مقمر » ، ولو قال :

تريا نهاراً مدجناً قد شابه   زهر الربا فكأنما هو مُقمِر

لكان أشبه بضوء القمر إذا كان اليوم مدجوناً والشمس محجوبة ، وقال أبو عبد الله الحرشي : لو قال :

تريا نهاراً مدجناً قد شابه   زهر الربا فكأنما هو مقمر

كان أشبه بمذهبه ، وكان قد طابق بذكر الليل مع النهار .

وهذا لعمري يلزم ، ولكن صفرة الزهر أشبه بضوء القمر وصفرته ، ليلا كان ذلك أو نهاراً ، ومثل هـذا يتسامح به ولا يدخل فى الخطأ والعيب عندى »[1] .

وعلى ذكر هذه القصيدة (رقّتْ حواشى الدهر) ـ كان العقاد وتلامذته يستمعون إلى قصيدة للشاعر العوضى الوكيل بعنوان (تحية الحياة) تقول أبياتها :

بينما كنت سارياً وظلام الـ   ـلّيل ضاحٍ بالبدْر يوم التّمام

بين روْض حوى حياة من النضـ   ـح وضافى السّنا وعذب الوسام

وأنا منصت لما فى خيالى   من حديث عن الورى وكلام

إذ هوتْ زهرةٌ علىّ من الغصْـ   ـن على رسلها مع الأنسام

قلتُ هذى تحية وسلام   يالها من تحيّة وسلام

ورسول من عالم الزهر والنّوْ   ر إلى عالم الرّدى والظلام

قال المهشرى رحمه الله :

لطاجور شاعر الهند الكبير قصيدة تقول إنه كان يتنزّه مع بعض أصدقائه فى

(١) الموازنة جـ ٣ ـ القسم الثانى ـ هامش ص ٦٤٦

زورق ، فإذا بسمكة تقفز من الماء ثم تهبط فيه ثانية فقال أحدهم : ما كان أحلاها مشوية فى صفحة ، وقال تاجور :

(إنها تحية من أعماق الحياة إلى ظواهرها)

وأحسب أن تاجور ـ وهذا حديث المهشرى ـ قد سبق العوضى فيما قال، فرد العوضى قائلا .. إن صح أنى أخذت من تاجور ـ وهو غير صحيح ـ فإن شاعراً كبيراً هو أبو تمام قد سبقنا حيث قال :

أضحتْ تصوغ بطونُها لظهورها نَوْراً تـكاد له القلوب تُنوِّر

فقال العقاد : هذا لعمرى أروع الثلاثة »[١].

ومما نحمده لأبى تمام فى قصيدته هذه أنه بعد أن فرغ من وصف الربيع أحسن التخلص من هذه المقدمة ، وانساب فى عذوبة ورقة إلى غرضه الأسامى وهو مدح المعتصم ، فعقد صلة وثيقة بين الربيع والممدوح مفضلا الثانى على الأول ، ومثبتاً حيثيات هذا التفضيل فقال :

خُلق أطلّ من الربيع كأنه خُلُقَ الإمام وهَدْيه للتيسِّر

فى الأرْض منْ عدْلِ الإمام وجُوده

ومن النبات الغض سُرْجٌ تزهَرُ

يُنسى الرِّياضُ وما يُروّضُ فِعلُهُ أبداً على مرِّ الليالى يُذْكَرُ

إن الخليفة حين يُظْلمُ حادث عَينُ الهدَى وله الخلافة محجِرُ[١]

وفى قصيدة أخرى يفضل ممدوحه مالك بن طوق التغلبى على الربيع وإن كان الناس يجهلون هذه المنزلة فيقول[٢] :

(١) الربيع فى الأدب والفن والحياة ـ مصطفى عبد الرحمن ص ١١٦-١١٧- مكتبة الأنجلو .

(٢) ديوان أبى تمام ج ٢ ص ١٩٦

خال الجزيرة إمحالٌ فقلتُ لهم شيموا نداه إذا ما البرق لم يُشَمِ
فما الربيع على أنس البلاد به أشدّ خُضرةَ عُود منه في القُحَمِ(١)
ولا أرى ديمةً أحى لمسغبةٍ منه على أنّ ذكراً طار للدِّيَمِ

وهذا يعنى أنّ الربيع عند أبى تمام كثيراً ما كان توطئة للمديح ، ومدخلاً من مداخله إلى الممدوح .

ولم يأت وصفُ الربيع عنده ممزوجاً بوصف الخمر ومجالس اللهو إلا على قلّة أو ندرة ، ومن ذلك قوله :

أفيكم فتى حىٌّ فيخبرنى عنّى
بما شربتْ مشروبةُ الراح من ذِهْنى ؟
غدتْ وهى أولى من فؤادى بعزمتى
ورُحتُ بما فى الدّن أولى من الدّنِّ
لقد تركتْنى كاسمها وحقيقتى مجازٌ وصبح من يقينى كالظنّ
هى اختدعتْنى والغمامُ ولم أكنْ بأوّلَ ما أسلمتُ عقلى إلى الدَّجْنِ
إذا اشتعلتْ فى الكأس والطاس نارُنا
تقبّلتُها من راحتىْ يقق لَدْنِ
هَراق الصِّبا فى وجنتيه ملاحةً فتنتُ بها أيّامَ يوسُفَ فى الحُسْنِ
إذا نحن أومأنا إليه أدارها شُلافاً كماء الجفْنِ وهىَ مِن الجفْنِ
تورِّدُ روح المرء من كلِّ وجهة
وتدخُلُ منه حيث شاءت بلا إذْنِ

---

(١) القحم : جمع قحمة وهى السنة الشديدة والقحط .

ومُسْمِعُنا طفلُ الأنامل عنده
لنا كلَّ يوم من قِرى العين والأذن

لنا وترٌ منه إذا ما استحثّه فصيحٌ ، ولحن فى أمانٍ من اللحْنِ

وفى رَوْضَة بيتيّة صَبغتْ لها جداولُها نوّارُها صِبْغةَ العِهْنِ

ظِلالُ بها فى جنّة غاب نَحْسُها تذكّرنا لذّاتُها جَنّةَ العدْنِ

نعمنا بها فى بيت أروع ماجد من القوم آبٍ للدنيّة واللّعْنِ

فتى شُقّ من عُودِ المحامد عوده
كما اشتق مُسْمُوه له اسماً من الحسْن

وللآمدىّ هنا تعليق يقول فيه :

« وهذه أبيات منها جيد حُلوٌ ، ومنها ردىء المعنى واللفظ ، قبيح النَسج .

فقوله : « وصبح من يقينى كالظن » ردىء ؛ من أجل قوله : « وصبح » كأنه أراد أن يقول : صحيح من يقينى كالظن » فلم يستوله أن يقول « صحيح » فجعل مكانه « صبح » أى : واضحُ يقينى ونيِّره كالظن .

وقوله : « هى اختدعتنى والغمام » بيت صحيح المعنى ردىء اللفظ والنسج .

وكذلك قوله[١] : « إذا اشتعلت فى الكأس والطاس ، وقد كانت الكاس تكفى من ذكر الطاس ، وإن كان هذا يسوغُ ، ومثله موجود فى أشعار الناس .

---

(١) الموازنة ج ٣ ـ القسم الثانى ص ٦٠٨ ـ

وقوله : « راحتيْ يَقِقٍ لدْنٍ » يُريد راحتيْ أبيض ناعم ، وأبيضُ ناعمٌ أجود وأحسن لفظاً من « يقق لدْن » وأحلى فى هذا الموضع ... » .

أما وصْف الربيع ممزُوجاً بوصْف الأبنية والبِرك فليس لأبى تمام شىء من ذلك[1] .

ومن نظرة أبى تمام لبقيّة فصول العام ، وكيف يرى العلاقة بين هذه الفصول فإننى أحمد لهذا الشاعر وفاءه وإنصافه ؛ ذلك لأنه على الرغم من افتتانه بالربيع وتصريحه بأنه (آثر الأزمان) إلا أنه لم يغبن الفصول الأخرى حقها ؛ فلم يكن ذامًّا للشتاء إلا لكراهة وجهه وشدّة برده ولكن مع هذا البرد القارس لم يخلُ هذا الفصْل من أفضال ومآثر ذكر أبو تمام بعضها فيما سبق[2] وها هو ذا يؤكّد ذلك بقوله[3] :

إنّ الشتاء على شتامة وجْهِهِ ... لَهُوَ المفيدُ طَلاَقَةَ المُصْطَافِ[4]
وكأنما آثارُها منْ مُزْنَةٍ ... بالميث والوَهَدَات والأخياف[5]
آثارُ أيْدِى آلِ مُصْعَبِ التى ... بُسِطَتْ بلا مَنّ ولا إخلافِ[6]

وتراه يثنى على الربيع والخريف ، ويخلع على كل منهما من الوصف ما يراه ملائماً بقوله :

---

(١) الموازنة ج ٣ ـ القسم الثانى ص ٦٦٢ ـ

(٢) ص ٢١ من البحث (٣) ديوان أبى تمام ج ٢ ص ٣٩٢

(٤) المصطاف : وقت الصيف .

(٥) الميث : جمع ميثاء وهى مسيل واسع ، وربما قيل هى الأرض السهلة ـ الاخياف : ما ارتفع من السيل .

(٦) مصعب . جد الممدوح الذى هو عبد الله ين طاهر بن الحسين بن مصعب ـ

في أوان من الربيع كريم وزمانٍ من الخريف حسيب[1]

فجعل الربيع كريماً ؛ لأنه يُطعم الماشية ، وفيه يكثر النبت والزهر ، وجعل الخريف حسيباً ، لطيب أيامه ، وفيه يتم ما جاد به الربيع فكان كمن طال عمره ، وكثرت مآثره ، وقد قال ابن شبل :

« كل ما يظهر فى الربيع نُوّارُه ، فنى الخريف تُجْتَنَى ثمارُه »[2] .

أما عن الصيف فنجد أبا تمام يعبر عن حنينه إليه ووفائه له ، وإن كان بخيلا ، فيبكيه كما يبكى الشباب والحب ؛ لأن حب الطبيعة ـ فى رأيه ـ يجب أن يكون قسمة بينْ مظاهرها المختلفة ، وأن يكون الدمع فى بكائها مقسما بالعدْل : ولهذا يصور الطبيعة فى حال من الغضب بعد الصيف ، والجبل قد لبس عدّة الحرب وتهيأ للنزال ، ولا يثنيه برد الشتاء عن وصفه بالكرم ، ولا بخل الصيف عن تحيّته .

وهكذا تبدو مظاهر الطبيعة العنيفة عنده فى لباس الروعة والمهابة :

لم يبق للصيف لا رسْم ولا طَلَلَ
ولا قَشيبٌ فيُسْتكْسَى ولا سَمَلُ[3]
عدْل من الدمْع أن يبكِى المصيفَ كما
يُبكى الشبابُ ويُبكى اللهو والغزلُ
يُمنى الزمان طوتْ معروفها وغدتْ
يُسراه وهْى لنا من بعدها بدلُ

(١) ديوان أبى تمام جـ ١ ص ١١٨
(٢) نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى جـ ١ ص ١٧٥
(٣) السمل : الخلق أو البالى .

ما للشتاء وما للصيف من مثل
يرضى به السمعُ إلا الجود والبخلَ
أما ترى الأرض غضبى والحصى قلق
والأُفق بالحرْجف النكباء يقتتل،[١]
من يزعم الصيف لم تذهب بشاشته
فغير ذلك أمسى يزعم الجبل[٢]

كما تبدو مظاهر الطبيعة الرقيقة مشرقة باسمة ، وهو فى الحالين يرعى للطبيعة حقها ، ويمثل فتنته بها أكمل تمثيل ، ويرى أن العلاقة بين الفصول المختلفة إنما هى علاقة انسجام وتكامل ، لا انفصام وتفاخر ، ولكنه مع ذلك ينزل الربيع منزلته ؛ لأنه يهدى إلينا البشاشة والنّوْر ، ويجعل عالمنا الأرضى مراحاً للسرور يضحك نبته ويتيه عوده بنضارة ورقّة :

نعمنا بالبشاشة والسرور وأيام الربيع المستنير
وقد ضحك النبات بكل أرض وتاه العود بالورق النضير

وهذه الصورة الربيعيّة أجمل ما عند أبى تمام من شعر الطبيعة[٣] .

ولكن تنعّم أبى تمام بالربيع قد حال دون اكتماله أمران :

أولهما : عَوْز ملح إلى المال دفعه إلى التنقل والترحال[٤] .

---

(١) الحرجف : الريح الباردة : لسان العرب مادة (حرجف) .

(٢) ديوان أبى تمام ٤/٥٢٦

(٣) شعر الطبيعة فى الأدب العربى د/ سيد نوفل ص ١٧٦ ـ الطبعة الثانية ـ دار المعارف .

(٤) راجع ص ١٨

ثانيهما : إدراكه أن أيّام السرور قصار ، وأن حسن الروض لا يُعمَّر ، ومن هنا كان أسفه على فوت الربيع لا يوصف :

ما كانت الأيام تُسْلَبُ بهجة ... لو أن حسن الروض كان يُعمَّرُ

وبقدر ما كان روض الرُّبا يفوق رَوْضَ الوهاد بهاءً ونضْرةً ، بقدْر ما يسرع إليه العطب ويعتريه الجفاف فسبحان من يُغيِّر ولا يتغير :

إن ريبَ الزمانِ يُحسن أن يُهْـ ... ـدى الرزايا إلى ذوى الأحساب

فلهذا يجفُّ بعد اخضرارٍ ... قبلَ روضِ الوهادِ رَوْضُ الروابى[1]

وهكذا ينتهى وصف الربيع عند أبى تمام .

---

(١) ديوان أبى تمام ٤٣/٤

الفصل الثانى

وصف الربيع عند البحترى

البحترى شاعر سليقى موهوب ، ينكر التكلف والانحراف بالطبع عن مجراه أو تقييده بحدود من القواعد والقوانين ، وهو تلميذ أبى تمام ، ومتأثر به فى بعض معانيه[1] ، وحسن الطبيعة عنده يحظى بتقدير خاص ، واهتمام شديد ، وهو الأمر الذى جعله يختار المقام ، ويؤثر مكاناً على آخر ، فهو يرى أن الطبيعة فى دمشق أكثر سحراً وجمالا ، وصيفها مثل شتاء العراق :

إنْ دِمَشْقاً أصبحتْ جَنّةً ... مُخْضَرّةَ الرّوضِ غَذَاةَ البراقْ[2]
هواؤها الفضفاضُ غض النّدى ... وماؤها السّلسالُ عَذْب المَذاقْ
والدهرُ طَلْقٌ بين أفيائِها ... والعيشُ فيها ذُو حَوَاشٍ رِقَاقْ
ناظـــرةٌ نحْوَكَ مُشْتاقةٌ ... مِنكَ إلى القُرْبِ وَوشْكِ التلاقْ
وكيفَ لا تُؤثرها بالهَوَى ... وصَيْفُها مِثْلُ شِتَاءِ العِرَاقْ ؟ ![3]

---

(١) الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى للآمدى تحقيق السيد أحمد صقر جـ ٣ ص ٣٢٤ ـ الطبعة الثانية ١٣٩٢ هـ ـ دار المعارف .

(٢) الغذاة : الأرض الطيبة التربة . البراق : واحدها برقة وهى الأرض الغليظة المختلطة بحجارة ورمل .

(٣) ديوان البحترى تحقيق / حسن كامل الصيرفى جـ ٣ ص ١٥١٤ ـ ١٥١٥ ـ دار المعارف بالقاهرة .

فقريته « منبج » التابعة لبلاد الشام قد أفاء الله عليها بقسط وافر من جمال الطبيعة وروعة الطقس، ورغد العيش، فلم لا يهواها ويقضي الصيف كله فيها فراراً من حرّ العراق ولفحه؟ لذا رأيناه يقول :

نَصبٌ إلى طيبِ العِراق وحسْنِها   ويَمنَعُ منها قيظُها وحَرورُها
هِيَ الأرضُ نَهْواها إذا طاب فَصلُها
ونهرُبُ منها حين يحمى هجيرُها(١)

من هنا كانت للربيع منزلة عنده لا يحظى بها فصل آخر من الفصول، فهو وإن استبشر بقدوم الخريف فقال :

لاحتْ تباشيرُ الخريفِ وأعْرَضَتْ
قِطعُ الغمامِ وشارَفَتْ أنْ تَهْطِلا(٢)

لكنه يوازن بينه وبين الربيع مفضلاً الثاني؛ لما خلعه على الطبيعة من ثوب قشيب :

فاتَ العُلى بأبي سعيدٍ صِنْوُها الـ   أدنى وأعقبَها أبا يعقوبا
كالبدْرِ جَلى ليله، ثم ابتدتْ   شمس المشارق إذ أجدَّ غروبا
أو كالخريفِ مضى وأصبح بعده   وشْيُ الربيع على النجاد قشيبا(٣)

وليالي الربيع أثيرةٌ لديْه، تفضُل ليالي الخريف وإن كانت جميلة :

وليالي الخريفِ خُضْرٌ ولكنْ   رَغَّبَتْنا عَنْها ليالِي الرَّبيعِ(٤)

---

(١) ديوان البحتري ٢ / ٩٤٣   (٢) نفسه ج ٣ ص ١٦٥٢
(٣) نفسه ١ / ١٨٥   (٤) نفسه ٢ / ١٢٨١

وتراه يعترف بفضل الشتاء اعترافاً ضمنياً ؛ حيث جعل الربيع - دائماً - زمن البذل والعطاء ، وهذا يعنى أن الشتاء قبله زمن الغرس والنماء وفى هذا يقول معاتباً الحسن بن وهب :

والأرض تبذل فى الربيع نباتها وكذلك يبذل الحرّ فى سلطانه[١]

ويتحول هذا الاعتراف الضمنىُّ إلى مكاشفة ؛ فكلُّ ما ازدانت به الرُّبا والوهاد مردّه إلى بكاء السماء فى فصل الشتاء ؛ فبكاء السماء هذا من شأنه أن يحدث البسمة على وجه الأرض « وتبسّمها يبدو فى هذه الزهور المستديرة البيضاء التى تشبه تلك النجوم التى فى السماء فكأن نجوم السماء فى مثل هذه الحال تُطِلُّ على نظائرها فى الأرض »[٢] :

أخذتْ قصورُ الصالحيّة زينة عجباً من الصفراء والحمراء[٣]
نَسَج الربيعُ لِرَبْعِها ديباجةً مِن جوهر الأنوار بالأنواء
بكت السماء بها رَذاذَ دُموعها فغدَت تبسّمُ عن نجوم سماء
فى حُلّة خضراءَ نمّم وشيها حوك الربيع وزهرة الصَّهباء
اشرب على زهر الرياض يشوبه زهر الخدود وزهرة الصهباء
من قهوة تُنْسِي الهمومَ وتبعث الـ ـشوق الذى قد ضلّ فى الأحشاء
يُخفى الزجاجةَ لونُها فكأنّها فى الكفّ قائمةٌ بغيرِ إناءِ

ولكن هل ظلّ البحترى على وفائه للشتاء وماله من مآثر ؟ أم أنّ افتتانه بالربيع ومقدمه قد حال دون ذلك ؟

(١) ديوان البحترى ٤ / ٢٢٦٤
(٢) الخيال الشعرى فى شعر الوصف عند البحترى للدكتور / طه مصطفى أبو كريشة ص ٦٩ - دار النمر للطباعة - الطبعة الأولى - ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م
(٣) نفسه ١ / ٦ - ٧

يأبى الجواب صريحاً فى قوله :

ذهبتْ جِدّةُ الشتاءِ ووافا ... نا شبيهاً بكَ الربيعُ الجديدُ
أُفقٌ مُشْرِقٌ وجوٌّ أضاءتْ ... فى سنا نُورِه الليالى السُّودُ
وكأن الحَوْذَانَ والأقْحُوانَ الـ ... ـغضّ نظمان : لؤلؤٌ وفريد[1]
قطراتٌ من السَّحابِ ورَوْضٌ ... نَثَرَتْ وردَها عليه الخدودُ
وليالٍ كُسينَ من رقة الصَّيْـ ... ـفِ فَخَيَّلْنَ أنهنّ بُرودُ
الرِّياحُ التى تهُبُّ نَسيمٌ ... والنُّجوم التى تُطِلُّ سُعودُ
ودنا العيدُ وهو للنّاسِ حتى ... يتقضَّى وأنت للعيد عيدُ

وقد علَّق الآمدىّ على هذه الأبيات بقوله :

« وهذا من حُلْوِ ألفاظه ونسجه ، غير أنه أساء فى قوله : « فخيّلنَ أنهنّ بُرود » ؛ لأن البُرُودَ لا تُوصَفُ بالرقّة ، وإنما توصف بالمتانة والصّفاقة ، وإذا وُصِفَ الشىء ذو الألوانِ قيل : كأنه بُرْدٌ ؛ لأن البُرْدَ قلّ ما يكون غَزْلُه من نَسْج لَوْنٍ واحدٍ ، وإنّما يكونُ من ألوانٍ ، فإنما عَلِقَ هذا من قول أبى تمّام — الذى أخطأ فيه كلّ الخطأ — يصِفُ الحِلم :

رقيق حواشِى الحِلمِ لَوْ أنّ حِلْمَهُ ... بكَفّيْكَ ما ماريْتَ فى أنّهُ بُرْدُ

وقد ذكرْتُ هذا فى أغاليطه ، ولستُ أدْرِى كيف ذَهَبَ مِثْلُه على البحترىّ مع جَوْدَةِ طَبْعِهِ وكثرةِ مَذَاهِبِه[2] :

---

(١) الحوذان : نبت لونه أصفر . الاقحوان : نبات أوراق زهره مفلجة صغيرة يشبهون بها الاسنان .

(٢) الموازنة جـ ٣ - القسم الثانى ص ٦٥١ - ٦٥٢

فالشواهد السابقة تؤكد أن الربيع أثير لدى البحترى ، فله عنده منزلة خاصة لا ترق إليها منزلة فصل آخر ، و « كثيراً ما كان يترقب مقدم الربيع الذى يبدى سحر الطبيعة ماثلاً للعيون ، ويكشف شعره الذى ذكر فيه الربيع كيف كان قلبه يرقص طرباً ، ويختال سروراً عند ما يتراءى أمام عينيه فى كل مكان ما أبداه الربيع من ساحر الألوان »(١) .

ومع ذلك فإننا نلحظ ـ فى مواطن كثيرة ـ أن حبه للربيع كثيراً ما يكون مردُّه إلى الصلة الوثيقة بين الربيع والممدوح ، والشبه القوىّ بينهما ؛ فالبحترى تارة يعدّ الربيع أخاً لممدوحه فى دلائل إثماره ، وكثرة إنعامه ، ومن هنا يُسكنُ له حُبَّه وتقديره ، فقال مخاطباً أبا نوح :

إنِّى لأُضمِرُ للربيع محبَّةً إذ كنتُ أعْتَدُّ الربيعَ أخاً لكاً(٢)

وتارة أخرى يشبِّه ممدوحه بالربيع ، فى الكرم ، وازدهار الأيام فقال :

قَدِمْتَ فأقْدَمتَ النَّدى يحملُ الرِّضا
إلى كلِّ غضْبانٍ على الدهر عاتبِ
وجئت كما جاءَ الرَّبيعُ مُحرِّكاً
يَدَيكَ بأخلاقٍ تفى بالسَّحائبِ
فعادتْ بكَ الأيامُ زُهْــراً كأنما
جَلا الدهْرُ منها عن خُدودِ الكواعبِ(٣)

---

(١) الخيال الشعرى فى شعر الوصف عند البحترى للدكتور / طه مصطفى أبو كريشة ص ٣٥

(٢) ديوان البحترى ٣ / ١٥٧٢ (٣) نفسه ١ / ٩١

وترى الصلة بين الربيع والممدوح أوثق ما تكون في قول البحترى يمدح المتوكل :

لو كنتُ أحسُدُ أو أنافِسُ معشراً
حَسَدْتُ أو نافَسْتُ أهلَ الموْصِلِ
غَشِيَ الربيعُ ديارَهُمْ وغَشِيتَها
وكلاكما ذو عارِضٍ متهلِّلِ
فأضاء منها كلُّ فجٍّ مظلمٍ
داجٍ وأخصبَ كلُّ وادٍ مُمْحِلِ (١)

فالبحترى لا يصف الربيع لذاته - غالباً - وإنما يجعله توطئة للمديح ، ومدخلا من مداخله إلى الممدوح ، ويبدو ذلك أكثرَ وضوحاً في قصيدته التي يمدح بها أحد قوّاد الخليفة المعتصم ، وكان أحد مداخل الشاعر إلى ممدوحه أن الربيع يشارك في التعبير عن هذا الثناء ، حين يُطلِقُ كلَّ عناصر وجوده الجميلة تقديراً للممدوح :

أتاكَ الربيعُ الطلْقُ يختالُ ضاحِكاً
مِن الحُسْنِ حتّى كادَ أنْ يتكلما
وقدْ نبّهَ النَّيْرُوزُ في غَسَقِ الدُّجَى
أوائلَ وَرْدٍ كُنَّ بالأمسِ نُوَّماً (٢)
يُفتِّقها بَرْدُ النّدى فكأنّه
يَبُثّ حَدِيثاً كانَ قبْلُ مُكتَّما

---

(١) ديوان البحترى ٢ / ١٦٢٧

(٢) النيروز : أكبر أعياد الفرس . ومعناه بالفارسية اليوم الجديد ، وهو أول يوم من السنة الشمسية الإيرانية ، ويوافق اليوم الحادى والعشرين من شهر مارس : « مطلع الربيع » .

فمِنْ شَجَرٍ رَدَّ الرَّبيعُ لِباسَهُ عَلَيْهِ كما نَشَّرْتَ وَشْياً مُنَمْنَمَا
أحَلَّ فأبْدَى لِلعُيونِ بشاشَةً وكانَ قَذَى لِلْعَيْنِ إذْ كانَ مُحْرِما
وَرَقَّ نَسيمُ الرِّيحِ حتى حَسِبْتَهُ يجيءُ بأنفاسِ الأحِبَّةِ نُعَّما
فَما يَحْبِسُ الرَّاحَ التي أنتَ خِلُّها
وَما يَمْنَعُ الأوْتارَ أنْ تَتَرنَّما؟(١)

فليست هذه الأبيات وَصفاً للرَّبيع لِذاته، وإنما هى استغلال لجميع طاقات الشاعر فى التعبير عن ولائه للممدوح، ومن هنا تصدَّر الوصف بقوله: (أتاك)، فالربيع قد أتى مختالا ببهائه، مُقدِّماً ألوانَ جمالِه للممدوح حُباً وتقديراً، ومع ذلك « أدَّى صدق العاطفة وجمال التصوير إلى أن تذيع أبيات الربيع بينما بقيت فى الظل أبيات المديح »(٢).

والبحترى هنا يصور الربيع عَرُوساً تختال ضاحكة، وتتفتح لمقدمها الورود، وتلْبسُ الأشجارُ أنضر اللباسِ، وترقُّ النسماتُ، ويختفى كلُّ ما فى الدنيا من قذى وعُبُوسٍ.

وتأتى أجزاء هذه الصورة متتابعة المعانى، يأخذ بعضُها بأطراف بعض فحينما يقول:

أتاكَ الرَّبيعُ الطَّلْقُ يَخْتالُ ضاحِكا
مِنَ الحُسْنِ حتى كادَ أنْ يَتَكلَّما

يمهِّد بهذا الاستهلال إلى اليقظة التى تتنبَّه لها الطبيعة من غفوة كادت

(١) ديوان البحترى ٤ / ٢٠٩٠.
(٢) الخيال الشعرى فى شعر الوصف عند البحترى للدكتور طه أبو كريشة ص ٢٥٣

أن تكون موانًا ، ثم يأتى الجزء الثانى من هذه الصورة موضحاً هذا التنبُّهَ الحالِمَ الوادِعَ الذى يقول فيه الشاعر :

وقد نَبَّهَ النيروزُ . . .

يُفَتِّقُها بَرْدُ النَّدَى . . .

وفى هذا الجوِّ الحالِم يقدِّمُ لنا صورة من الحديث الهادئ ، يبثّه بَرْدُ النَّدَى فى حنان إلى الوردِ ، بعد أنْ فتق عنه غلائِلَه : وحلّ أزْرَارَه ؛ ليكشف عن مفاتنه .

وهذه خلجاتٌ تَخْتلجُ فى نَفْسِ الشاعر ، فهو يُصَوِّر إحساسه الباطنَ ، ليعُودَ فى الجزء الثالث من الصورة إلى الحس الواعى الذى يشترك فيه مع غيره من الناس فيقول :

فمن شجر ردَّ الربيعُ لباسَه . . .

والشاعر بهذا يكمل أجزاء الصورة السابقة ؛ فإن من أوائل ما يفكِّر فيه المستيقظ عند انتباهه أن يأخذ أُهْبَته للقاء الناس باللباس الذى يروق لهم ، ثم يتابع هذا بقوله :

أحَلَّ فأبْدَى لِلْعُيونِ بشاشَةً
وكَانَ قذىً لِلْعينِ إذْ كانَ مُحْرِما

فبعد أن طوف بخياله فى هذا المنسك الرائع من مناسك الطبيعة يعود بذهنه إلى صورة من صور الواقع الحسى يستمدُّ معالمها من إحرامِ الحجيج حين يتجردُونَ من مخيط الثياب ؛ ليقدم لنا صورة حسيَّة لتجرُّدِ الأشجارِ من الأوراق والأزهار قبل مجيء الربيع ، فإذا جاء تفتحت الأزهارُ فى قمة جَمالِها ، وازدهت الأشجارُ بكامل زينتها ، كما يتحلل الحاجُّ من إحرامه .

والبحترى هنا « لا يكتفى بعرض اللوحة أمامنا بألوانها الطبيعية التى نقلها عن الطبيعة ذاتها ، ولكنه يدعنا نلمح فى أرضيّة اللوحة ظلالا أخرى تضفى على الصورة حيويّة ، حين يمازج بين إحساس خفىّ وإحساس ظاهر »[1] .

لقد كان البحترىّ موفقاً غاية التوفيق فى رسم صورَه التى أراد أن يعبر بها عن جمال الربيع ، فهذه ورود نائمة نبّهها من غفوتها طلوعُ فجر عيد ، وهذا ندى يبث حديث الحُبِّ للأزهار ؛ كى تصحو على أحْلَى ما يُحبُّه الحبيب من حبيبه ، فيبدو نشيطاً سعيداً ، وهذه الدنيا كلُّها قد ازْدَهتْ بأجمل ما عندها ، كى تكونَ إطاراً جميلا لهذه اللحظات الممتعة ، وواضح أن « البحترىّ يرى فى الربيع « بعثاً » للحياة بعد موت وركود وخمود على هذه الأرض ، وكان يعمل خياله النشط فى تتبع مظاهر هذا البعث فى كل شىء تغير بمقدم الربيع »[2] .

والبيت الأخير من هذه الأبيات :

فما يحبس الراح التى أنت خِلّها ... وما يمنع الأوتار أن تترنما ؟

يعبِّر عن مسْلك البحترىّ ، وحِرْصِهِ على ارتياد مجالس اللهو والسَّمَر وبخاصّة فى زمن الربيع ، فقد كتب إلى المبرّد تحت عنوان : فى الراح راحة :

يومُ سبْتٍ ، وعندنا ما كفى الحرّ ... طعامٌ ، والوِرْدُ مِنّا قريبُ
وَلَنَا مَجْلِسٌ عَلَى النَّهرِ فَيّا ... حٌ ، فَسِيحٌ تَرْتاحُ فيه القُلوبُ
ودَوامُ المُدامِ يُدْنِيكَ مِمَّنْ
كُنْتَ تَهْوَى وإنْ جَفاكَ الحبيبُ

(١) ديوان البحترى ج ١ - مقدمة الطبعة الاولى . ص ١٥ - ١٦

(٢) الخيال الشعرى فى شعر الوصف عند البحترى ص ٤٨

فأتنا يا « محمدُ بنُ يزيد » فى استتار كىْ لا يَراكَ الرقيبُ
نطرُدِ الهمّ باصطباحِ ثلاثٍ مُترَعاتٍ تنفى بهنّ الكروبُ
إنّ فى الراح راحةً من جوى الحب وقلبى إلى الأديب طروبُ
لا يَرُعْكَ المشيبُ منّى فإنى ما ثنانى عن التصابى المشيب(1)

ويواصل البحترىُّ وصفَ مجالس الشرابِ فى الرّبيع ، وما كان له فيها من عَبَث ، فيقول فى دعوة كانت ليونس بن بُغا دعاه فيها :

شاهدتُ أيَّامَ السُّرُورِ فلَمْ أجِدْ
يوْماً يَسُرُّ كيوم دعوة يُونُسِ
أدْنَى مَزَارٍ وَسْطَ أحْسَنِ بُقْعَةٍ
وأجَلُّ زُوّارٍ لِأبْهَى مَجْلِسِ
فِى رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ يُشْرِقُ نَوْرُها
تُسْقَى مُجاجاتُ الغيومِ البُجَّسِ(2)
فَخرَ الرّبيعُ عَلَى الشّتاء بِحُسْنِها
وكَفى حُضُورُ الوَرْدِ فقد النرجس
لا تَسْقِيانى بالصّغيرِ فإنّهُ
يَوْمٌ يَليقُ بِهِ كِبارُ الأكْؤُسِ(3)

والبحترىُّ فى هذه النصوص قد أرانا من نفسه شاعراً ماجناً غير عابىء بكبر سِنّه ، يمكن أن يصدق عليه قول القائل :

شَيْبٌ وعَيْبٌ لا يليقُ بِمُسْلِمٍ إنّ الخطايا فى المشيب فُجُورُ

---

(1) ديوان البحترى ١ / ١٣٢
(2) مجاج المزن . المطر . البجس : الغزيرة .
(3) ديوان البحترى ٢ / ١١٥١

لولا أن الدِّين بمعزل عن الشِّعر كما قال القاضى الجرجانى[١] وقديماً قال أبو الدَّرْدَاء : « إنى لأستجمُّ نفسى بشىء من الباطل ؛ لتكون أقوى على الحق »[٢] .

لقد حرص البحترىّ على اغتنام أوقات الربيع فى اللهو والمرح ؛ فقد ازدانت الأرض بشقائق النعمان[٣] ، وتبدَّلت الأيامُ فإذا هى « ظراف ناضرات حسان » :

يا ابنَ حُمَيْـــدٍ عِشْ لَنَا سالِماً
ما اخْتَلَفَ النَّوْرُوزُ والمِهرَجَان
واسْتَأْنِفِ العُمْرَ جَدِيداً فَقَدْ وَلَّى زَمَانٌ ، وَأَتَانَا زَمَانْ
أَمَا ترى الأرضَ ، وَأثوابُها شقائق النعمان ، والأُقْحُوانْ[٤]
وَهَذِهِ الأيَّامُ قَدْ أُبْدِلَتْ فَهِيَ ظِرَافٌ نَاضِراتٌ حِسَانْ
فَصَدْتَ فِي الفَيْرُوزِ عِرْقاً وقَدْ تَخَيَّرَ الوَقْتُ ، وطَابَ الأَوَانْ
فَاستَعْمِلِ الصَّهباءَ فِي مَجْلِسٍ تَسْتَعْمِلُ الأَوْتَارَ فِيهِ القِيانْ[٥]

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضى الجرجانى تحقيق / محمد أبو الفضل، وعلى البجاوى ص ٦٤ ـ ط الحلبى ١٩٦٦ م

(٢) الكامل لأبى العباس محمد بن يزيد المبرد ـ عارضه بأصوله وعلق عليه / محمد أبو الفضل إبراهيم جـ ٢ ص ٢٨٥ ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة .

(٣) شقائق النعمان : مفرد للواحد والجمع سميت لحمرتها تشبيهاً بشقيقة البرق ، أضيف إلى ابن المنذر ؛ لأنه جاء إلى موضع وقد اعتم نبته من أصفر وأحمر وفيه من الشقائق ما راقه فقال : ما أحسن هذه الشقائق احموها وكان أول من حماها: القاموس المحيط باب القاف فصل الشين .

(٤) الأقحوان : نبات أوراق زهره مفلجة صغيرة يشبهون بها الأسنان .

(٥) ديوان البحترى ٤ / ٢٢٣٦

وقدْ عُنِيَ البحتريّ بوصف الربيع فى غير مكان : فتراه ، يتعجَّبُ من مشاهد الرّبيع فى « بِطياسَ » ، وكأنّها ضرْب من البُرُودِ أو زَرَابِىّ تنتمى إلى عالم الجنّ ؛ لما فيها من نبات وأزهار تختلط أشكالها وتتعدّدُ ألوانها ، فقال فى مطلع قصيدة يمدح بها أحمد بن دينار .

أَلَمْ تَرَ تغليسَ الرّبيعِ المبكِّرِ
وما حاكَ مِنْ نشْر الرياضِ المنشَّرِ ؟ !
وسَرْعانَ ما ولّى الشتاء ولم يقفْ
تَسَلُّلَ شخص الخائف المتنكِّر
مرَرْنا على بِطْياسَ ، وهْيَ كأنَّها
سَبَائبُ عصْب أو زَرَابىُّ عبقرِ[1]
كأنّ سُقُوطَ القطْرِ فيها إذَا انثنى
إليها ، سُقُوط اللؤلؤ المتحدِّر
وفِي أُرْجُوانِيٍّ مِنَ النّوْرِ أَحْمَرِ
يُشابُ بإفرندٍ مِنِ الرّوْض أخضر
إذا ما النّدَى وَافاهُ صُبحاً تمايلَتْ
أعالِيه مِنْ دُرٍّ نثيرٍ وَجوْهَر
إذا قابلتْهُ الشمسُ ردَّ ضياءها
عليها صِقال الأقحوانِ المنوَّر

---

(١) السبائب : الواحدة سبيبة وهى الخصلة من الشعر ، وشقة كتان رقيقة . العصب : ضرب من البرود اليمنية . الزرابى : الواحد زربى وزربية وهو من النبت ما اصفر أو احمر وفيه خضرة . عبقر : واد كان العرب يزعمون أنه وادى الجن ، ثم نسبوا إليه كل ما يتعجب من جودة صنعه .

إذا عطفته الريحُ قُلْتُ : التفافةٌ
لعلْـــــــوَةَ في جاديِّها المتعصْفِرِ[1]

وفى الأبيات تشبيهات حسان ، تجعل قطرات الندى فوق النَّوْر - صبحاً - دُرّاً منثوراً ، وسقوط القطر لؤلؤاً متحدِّراً ، والنَّور - إذا عطفته الريح التفافة عَلْوة .

ويقف على مشاهد الربيع بذى الأراك ، ويصف نسوة مشين فيه ، فيشبه قُدودهن بالأغصان ، وثيابهن بوَشْى الرُّبى ، وخدودهن بوَرْدِ الرياض ، وثغرهن بالأقاحى فيقول[2] :

لما مَشَيْنَ بذِى الأَرَاكِ تَشَابَهَتْ
أعطافُ قُضبــانٍ به وقُدُودِ[3]
فى حُلّتى حِبَرٍ ، ورَوْضٍ فالتقى
وشْيانِ : وشْى ربى ووشْى بُرُودِ
وَسَفَرْنَ ، فامتلأَتْ عُيُونٌ رَاقها
وَرْدَانِ : وَرْدُ جَنَى ووَرْدُ خُدُودِ
وضَحِكْنَ فاغْتَرفَ الأقاحِى مِنْ نَدَىً
غَضٍّ ، وسَلْسَالِ الرُّضابِ برودِ[4]

---

(١) ديوان البحترى ٢ / ٩٨٠ - ٩٨١

(٢) المصدر نفسه ٢ / ٦٩٧

(٣) الأراك : القطعة من الأراك والحمض ، وشجر من الحمض يستاك به .
القضبان : أشجار طالت وبسطت أغصانها .

(٤) الرضاب : الريق المرشوف أو قطع الريق فى الفم ، وما تقطع من الندى على الشجر .

والبحترى هنا قد شبه الخدود بالورود فى قوله : (وورد خدود) ولكنه اعترف فى موضع آخر بأن ورد الربيع وجُلّناره[١] أبهى من الخدود الحسان :

وَالْخُدُودُ الحِسَانُ يبْهَى عَلَيْهَا
جُلَّنَارُ الربيع طَلْقاً وَوَرْدُهُ[٢]

ويرسم البحترى لوحة فنية ساحرة يصور فيها معالم الرياض الخضر ، وما فيها من أزهار فاتنة ، وورود حمر جاسدة تنبعث منها ليلاً ريح طيّبة تذكره أنفاس الأحبة ، وتُعرّف هـذه الورود بشقائق النعمان ، وحينما تنزل عليها قطرات الطل فإنها تشبه دموع التصابى فى خدود الخرائد[٣] : كما أن جنى الحوزان يشبه دنانير تبر منظوم ومنثور يقول البحترى[٤]

سقَى الغيثُ أكْنافَ الحمى من مَحَلّةٍ
إلى الحِقْفِ من رَمْلِ النقا المتقاوِدِ[٥]

---

(١) الجلنار ـ بضم الجيم وفتح اللام المشددة ـ . زهر الرمان ، معرب كلنار ، ويقال : من ابتلع ثلاث حبات منه من أصغر ما يكون لم يرمد فى تلك السنة : القاموس المحيط باب الراء فصل الجيم .

(٢) ديوان البحترى ١ / ٥٠٩ .

(٣) الخرائد : جمع الخريد ، والخريدة ، والخرود : البكر لم تمسس أو الخفرة الطويلة السكوت الخافضة الصوت المتسترة .

(٤) الموازنة ج ٣ ـ القسم الثانى ص ٦٤٩وديوان البحترى ١ / ٦٢٣ - ٦٢٤

(٥) الحقف : ما اعوج من الرمل . المتقاود : المستوى .

ولا زالَ مُخضرٌّ مِنَ الغَيْثِ يانعٌ
عَلَيْهِ بِمُحْمرٍّ من اللونِ جاسِدِ[١]
شقائق يَحْمِلْنَ النَّدى فكأنَّهُ
دُموعُ التَّصابى فى خُدُودِ الخرائدِ
كأنَّ يَدَ الفتح بنِ خاقانَ أقبلتْ
تليها بتلكَ البارقاتِ الرَّواعِدِ
فمن لؤلؤ فى الأقحوان مفَصَّلٌ
على نكت مصفرَّة كالفرائد[٢]
يذكرنا ريَّا الأحبَّة كلما
تنفَّس فى جُنح من الليل بارد
كأنَّ جنى الحوذان فى رونق الضحى
دنانير تبر من تؤامٍ وفارد
رباع تردَّتْ بالرياض مجودةً
بكلِّ جديد الماء عذْب للوارد
إذا راوحتْها مزْنة بكرتْ لها
شآبيب مجتاز عليها وقاصد[٣]

وقد أثنى الآمدىّ على هذه الأبيات مفضلاً إياها على أبيات لأبى تمام فى المعنى ذاته ، وسيأتى بيان ذلك عند الموازنة بينهما .

---

(١) الجاسد ، من الجسد : لصوق الدم .
(٢) الفرائد : جمع الفريد والفريدة : الجوهرة والدر إذا نظم وفصل بغيره .
(٣) الشآبيب : جمع شؤبوب : الدفعة من المطر وأول الحسن .

وواضح مما تقدم أنّ البحترى ـ فى وصفه للربيع ـ تتداعى لديه الذكريات ؛ فعطف الريح للنَّوْر الأحمر يذكره التفاتة « تَلْوة » ، والنسائم العطرة للزهور تذكره أنفاس الأحبة وهم فى سرور وغبطة ، وتعانق الأشجار وما عليهامن ورود وأزهار يذكره تعانق المحبين ، وهكذا .

ولم ينس البحترىّ أن يصوِّر لنا الطير وهى تشدو ـ فوق الأغصان وبين الزهور ـ بصوت عذب رخيم لا تملك إلا التجاوبَ معه ، والترنم به وترديد ألحانه فقال :

وكم بالجزيرة من روضةٍ ... تُضاحِكُ دِجْلةُ تغبانها[1]
تريك اليواقيت منثورةً ... وقد جَلّل النَّوْرُ ظُهرانها
غرائب تخطف لحظ العيو ... ن إذا جلت الشمس ألوانها
إذا غرّد الطيرُ فيها ثنتْ ... إليــك الأغانى ألحانها

وفى موضع آخر يصوّر تغريد الطيور إلى جانب ألوان الزهور[2] :

وروضٍ كساهُ الطّل وَشْياً مجدّداً ... فأضحى مقيما للنفـوس ومُقْعِداً
إذا ما انسكاب الماء عاينت خلته ... وقد كسّرته راحة الريح « بُرْجدا »
وإن سكنت عنه حسبتَ صفـاءه ... حساماً صقيلاً صافى المتن جردا

(١) ديوان البحترى ٤ / ٢١٧٦ ـ والثغبان : الغدران .
(٢) المصدر نفسه ٢ / ٨٤٠

وغنّتْ به وُرْقُ الحمائمِ حَوْلَهَا   غِناءً يُنَسِّيكَ الغريضَ ومعبَدا[1]

وقد أوضح الدكتور طه أبو كريشة معالم هذه اللوحة :

« فالطلّ كسا الروض « وشياً مجدداً » لكنه ليس وشياً عادياً تمر به مروراً عابراً ، وإنما هو لفرط جماله « أضحى مقيما للنفوس ومقعداً » . أما الماء الذى يقدمه لأوّل مرّة فى داخل اللوحة فإنه تارة يكون « برجدا » وتارة يكون « حُساماً صقيلا صافى المتن جرداً » يكون برجُداً حين تلامس صفحته راحة نسائم الريح فتصنع به خطوطاً متوالية ومتداخلة أشبه بالبرد المخطط ، ويكون سيفاً صقيلا ذا بريق ولمعان حين تسكن عنه هذه الريح ، ويجرى وادعاً صافياً فى ملاسة واستواء .

وأمّا تغريد الحمائم فقد مرّ فى لوحة أخرى حديث عن غناء الطيور التى تجبر من يسمعها أن يترنّم مثلها ، ويجاوبها بغناء فيه أعذب الألحان ، والجديد فى هذه اللوحة أن غناء الحمائم يذكرنا بمن يُضرَب بهم المثل فى الطرب والغناء ، لكننا نتذكرهم فى درجة أدنى من هذا الذى نسمعه الآن من وُرْق الحمائم ، ومن هنا ننساهم ؛ لأن هناك من تربع على عرش الغناء بدلا منهم :

وغنّت به وُرقُ الحمائم حولنا   غناء يُنَسِّيك الغريض ومعبدا

وهذا النسيان لا يكون إلا ممن ملك عليه ما يسمعه أقطار نفسه ، ومن ثم يترك لنا الخيال حرية درجة النبوغ فى هذا الغناء الذى غدا بجانبه الغريض ومعبد فى عالم النسيان »[2] .

---

(١) الغريض : كل غناء محدث طرى ، ومنه سمى المغنى الغريض ، لأنه اتى بغناء محدث : لسان العرب مادة (غرض) .

(٢) الخيال الشعرى فى شعر الوصف عند البحترى ص ٦٠

وفى كلٍّ ما عرضناه من ملامح الربيع عند البحترى كانت نفسه مشرقة ، ومقبلة على الدنيا ، وهذه صورة أخرى نرى فيها التمازج الكامل بينه من ناحية أحاسيسه الباطنة القاتمة ، وبين مظاهر الطبيعة المتألقة الباسمة حيث يقول(١) :

أَدْمُعٌ قَدْ غَرِينَ بِالْهَمَلَانِ وَفُؤَادٌ قَدْ لَجَّ فى الْخَفَقَانِ
ابكيا هَذِهِ المغانى التى أخْ لَقَهَا بُعْد عَهْدِها بالغَوَانى
أسْعِدَا الغَيْثَ إذْ بكاها وإنْ كا ن خَلِيًّا من كُلِّ ما تجدان
جاد فيها بِمائِهِ فاستجدتْ حُلَلاً منه بَهْجَةَ الألوان
فَهْىَ تهتزُّ بينَ إفْرِنْدِهِ الأخْ ضَرِ ، حُسْنًا ووشيه الأُرْجُوَانى(٢)
فى سَماء من خُضْرَةِ الرَّوْض فيها أنجُمٌ مِنْ شقائِقِ النُّعْمانِ
واصْفِرارٍ مِن لَوْنِهِ ، وابيضاضٍ كاجْتماع اللجين والعقْيانِ(٣)
وتُرِيكَ الأحبابَ يوم تلاقٍ باعْتناقِ الحَوْذانِ والأُقْحُوانِ
صاغ مِنْهُ الربيعُ شكلاً لأخلا قِ حُسَيْنٍ ذى الجود والإحسانِ(٤)
فكأنَّ الأشجارَ تعلو رُبَاهَا بنثير الياقوتِ والمَرْجانِ
وكأنَّ الصَّبا تردَّدُ فيها بنسيم الكافور والزعفرانِ
قَد تصابَيْتُ فاعْذُرى أو فلومى ليس شىء من الصبا من شانى
وتذكرت وافد الشيب فاستعـ جلتُ حظى فى الراح والريحانِ

---

(١) الموازنة ج ٣ ـ القسم الثانى ص ٦٥٠ وديوان البحترى ٤/٢١٩٧-٢١٩٩

(٢) الفرند والإفرند : السيف وجوهره ووشيه .

(٣) العقيان : الذهب .

(٤) هو الحسين بن الحسن بن سهل .

وواضح أن الصورة المعروضة هنا مختلفة عن الصور التى عرضناها عند البحترىّ سابقاً ؛ فالتى بين أيدينا تُزاحِم الألوانُ القاتمة فيها الألوان الزاهية ، وتطل من خلال البسمات ومضات دموع ، وتسمع من بين هذا الموكب المرح أنات خافتة ، وتعبر سماء هذا الأفق الضاحك سحابات حزن وأسى ، فالشاعر حين بدأ قصيدته بهذا المطلع :

أدمع قد غرين بالهملان وفؤاد قد اجّ فى الخفقان

مهّد أسماعنا واسترعى انتباهنا إلى هذه الانفعالات النفسيّة التى يجيش بها صَدْره ، فهو يقابل صورة بصورة ، ويعكس ألواناً مع ألوان ؛ ليربط بين الصورتين فى وحدة تامة : ماضٍ كان كهذا الربيع المتألق فى شباب كان يأخذ من نعم الحياة نصيبه منها ، ثم تسرع الأيام فتطوى هذ الشباب وتُسلم إشراقه ومرحه وزهوه إلى مشيب يكبح جماح الأمل فى النفس ، ويحاول أن يخمد نبضات الرغبات فى القلب ، فهو حين يرى بكاء الغيث قد ردّ إلى الطبيعة جمالها وابتسامها يعاوده أمل فيتصابى ؛ ولكن الأمل مهيض الجناح فيتلفت إلى ما حوله ويقول فى أسى :

(ليس شىء من الصِّبا من شانى)

ويرده تآلف الألوان ، وتعانق النبات إلى ذكرى ماضٍ حُلْوٍ ، واجتماع هنىء ذهبا فلا يعيدها إلى البعث بكاء كبكاء الغيث[1] .

وقد وصف الآمدى أبيات البحترى هذه بأنها ليست من نخل كلامه[2]

---

(١) ديوان البحترى جـ ١ مقدمة الطبعة الاولى ص ١٦ - ١٧

(٢) الموازنة جـ ٣ ـ القسم الثانى ص ٦٥٠

وعلّق عليها بقوله : « وهذه أبيات كما تراها فى لينها وخنوثتها وشدّة تكلفها . . »[1] .

وقد عُنى البحترىّ بوصف الأبنية والبِرك ، وما يتخللها من رياض زاهرة تجعل اقترانها بوصف الربيع حتما ولازماً ، فقد مدح ابن المعتز وتحدّث عن قصره « الكامل » ومضى يصف رخامه وخطوطه المتقابلة ، وما امتدّ أمامه من بستان أنيق ، وما يجرى فيه من مياه دجلة المفضضة ومن نسيم الصَّبا الحانى فقال :

لمّا كملْتَ رَوِيّةً وعَزِيمةً أعملتَ رأيكَ فى ابتناء الكامِلِ[2]
وغَدَوْتَ مِن بَيْنِ الملوكِ مُوَفَّقاً مِنْهُ لأيْمَنِ حِلّةٍ وَمَنازِلِ
ذُعِرَ الحَمامُ وقَدْ تَرَنَّمَ فَوْقَهُ مِنْ منظرٍ خَطِرِ المزَلّةِ هائِلِ[3]
رُفِعَتْ لِمُنْخَرِقَ الرِّياحِ سُمُوكُهُ وزَهَتْ عجائبُ حُسْنِهِ المتخايلِ[4]
وكأنّ حيطانَ الزُّجاجِ بِجَوِّهِ لُجَجٌ يَمُجْنَ عَلَى جُنُوبِ سَوَاحِلِ
وكأنّ تفْوِيفَ الرُّخامِ إذا التقى تأليفُــــهُ بالمنظَرِ المتقابِلِ
حُبُكُ الغمامِ رُصفْنَ بين مُنَمَّرٍ ومُسَيَّرٍ ومُقارِبٍ ومُشاكِلِ
لَبِسَتْ من الذَّهَبِ الصقيل سُنُونَهُ نُورًا يُضِىءُ عَلَى الظلامِ الحافِلِ
فترى العُيونَ يَجُلْنَ فى ذى رَوْنَقٍ مُتَلَهِّبِ العالى أنيقِ السّافِلِ

---

(١) الموازنة جـ ٣ ـ القسم الثانى ص ٦٥١

(٢) ديوان البحترى ٣ / ٦٦٤٨ ، والموازنة ، ـ جـ ٣ ـ القسم الثانى ٦٦٣

(٣) المزلة : المزاق .

(٤) منخرق الرياح : مهبها . سموكه : أعاليه .

وكأنما نُشِرَتْ عَلَى بُسْتانه سِيَرَاءُ وشْىِ اليُمْنَةِ المُتَواصِلِ[1]
أغْنَتْهُ دِجْلَةُ أنْ تلاحَقَ فيضُها
عنْ صَوْبِ مُنسجمِ الرَّبابِ الهاطِلِ[2]
وتنفَّستْ فيه الصَّبا فتعطَّفتْ أشجارُه مِنْ حُيَّلٍ وحوامِل
مَشْىَ العَذَارَى الغِيد رُحْنَ عَشيَّةً
مِنْ بين خاليةِ اليدينِ وعاطِلِ

وقال فى « الصبيح والمليح » قَصْرَىِ المتوكل[3] :

إنَّ طَيْفاً يزورُنى فى المنـام خلىَّ من لَوْعَتى وغَرامى
إنما العيشُ أن تـكونَ الليالى مُفْضِلاتٍ طُولاً على الأيامِ
قدْ صَفا جانبُ الهواءِ ورَقَّتْ لَذَّةُ الماءِ فى مِزاجِ المُدَامِ
واسْتَتَمَّ الصَّبيحُ فى خيرِ وقْتٍ فَهْوَ مَغْنَى أُنسٍ ودَارُ مُقامِ
ناظِرٌ وجْهَةَ المليح فلو يَنْـ طِقُ حيَّاهُ مُعْلِناً بالسَّلامِ
ألْبِسا بَهْجَةً وقابِل ذا ذا كَ ، فمنْ ضاحِكٍ ومِنْ بسَّامِ
كالمحبَّيْنِ لَوْ أطاقا لِقاءً أفْرَطا فى العِناقِ والالتزامِ
تُنْفِذُ الرِّيحُ جَرْيَها بين قُطْريْـ ـهِ فتـكْبُو من ونْيةٍ وسآمِ[4]
مُسْتَمِدٌّ بجدْولٍ مِن عُبابِ الْـ ماءِ كالأبيضِ الصَّقِيلِ الحُسامِ[5]

---

(١) سيراء : برد يمنية فيها خطوط صفر .
(٢) الرباب : السحاب الأبيض .
(٣) الموازنة جـ ٣ ـ القسم الثانى ص ٦٦٤ ـ ٦٦٥
(٤) الونية : من الونى وهو الضعف والفتور والـكلال والإعياء .
(٥) الصقيل : المجلو .

فإذا ما توسّط البِرْكَة الخفـ ... ـراءَ ألقَتْ عليه صِبْغَ الرُّخامِ
فتراه كأنّه ماءُ بحـــرٍ ... يخدعُ العينَ وهْوَ ماءُ غمامِ
والدواليبُ إذْ يدُرْنَ ولا نا ... ضِـحٌ يمشي بهنَّ غيرُ النعامِ
بِدَعٌ أُنشِئَتْ لأولى عبادِ اللهِ ... بالرُّكْنِ والصَّفا والمقامِ
إنَّ خَيْرَ القُصُورِ أَصْبَحَ مَوْهُو ... بًا بِكُرْهِ العِدَى لخيرِ الأنامِ
جاوَرَ الجَعْفَرِيَّ وانحاز شِبْدَا ... زُ إليه كالراغب المُعْتامِ[1]
حِلَلٌ من منازلِ المُلْكِ كالأنـ ... ـجُمِ يلمعنَ مِن سَوادِ الظَّلامِ
مُحجَبات تُخْفِي الصِّفاتِ فما تُدْ ... رِكُ إلا بالظنِّ والأوهامِ
فكأنّا نُحِسُّها بالأماني ... أوْ نَراها في طارِقِ الأحلامِ
غُرَفٌ مِن بناءِ دِينٍ ودُنيا ... يُوجِبُ اللهُ فيه أجْرَ الإمامِ
شوّقتنا إلى الجِنانِ فَزِدْنا ... في اجتنابِ الذُّنوبِ والآثامِ

وكان القدماء يُعْجَبون أشدَّ الإعجاب بوصفه لبركة أقامها المتوكّل بأحد قصوره فكانت فتنة للناظرين ، وفى وصفها تحدث البحترىّ عن السمك المحصور فيها ، والصحن الممتدّ فى أسفلها ؛ والبهو الممتدّ فى أعاليها ، وتمثال الدُّلْفين الذى كان مُقاماً عليها ، والبساتين والرياض التى تحف بها ، والأزهار التى تشبه ريش الطواويس فى تلاوينها العجيبة :

يا من رأى البركة الحسناءَ رؤيتُها ... والآنساتِ إذا لاحتْ مغانيها[2]

---

(١) الجعفرى وشبداز : قصران للمتوكل .

(٢) الموازنة ج ٣ - القسم الثانى ص٦٦٥. مغانيها : منازلها ، ولعله كان حول البركة بيوت لاغتسال الجوارى .

تحسَبُها أنها فى فضل زينتها ... تُعدُّ واحدة والبحرُ ثانيها[1]
ما بال دِجْلَةَ كالغَيْرى تُنافِسُها
فى الحُسْن طوراً ، وأطواراً تباهيها
أما رأتْ كالىء الإسلام يكلؤها
مِنْ أنْ تُعابَ وبانى المجد يَبنيها[2]
كأنَّ جنَّ سليمانَ الذين وَلُوا ... إبداعَها وأدقُّوا فى معانيها
فلو تمرُّ بِها بَلْقِيسُ عن عُرُض ... قالتْ : هى الصَّرْحُ تمثيلا وتشبيها
تنحطُّ فيها وفود الماء مُعْجَلَة ... كالخيلِ خارجةً مِنْ حَبْل مُجْرِيها
إذا علتها الصَّبا أبدتْ لها حُبُكاً ... مِثْلَ الجواشن مصقُولا حواشيها[3]
فرونقُ الشمسِ أحياناً يُضاحِكُها ... وريّقُ الغيث أحياناً يُباكيها
إذا النجومُ تراءتْ فى جوانبها ... لَيْلا حَسِبتَ سَماءً رُكِّبتْ فيها
لا يبلغُ السَّمَكُ المحصورُ غايتَها ... لِبُعْدِ ما بين قاصيها ودانيها
يعُمْن فيها بأوساطِ مُجنَّحَةٍ ... كالطير تنقضُّ فى جوٍّ خوافيها[4]
لَهُنَّ صحْنٌ رحيبٌ فى أسافلها ... إذا انحططْنَ وَبَهْوٌ فى أعاليها[5]
صُورٌ إلى صُورة الدُّلْفِين يُؤْنِسُها ... منه وفاءٌ بعينَيْه يُناجيها[6]

---

(١) فى الديوان : « يحسبها أنها من فضل رتبتها » .

(٢) الـكالئ : الحارس والمراد : الخليفة .

(٣) الحبك : تـكسر الماء . الجواشن : الدروع ، والمفرد : جوشن .

(٤) شبه أجنحة السمك النابتة فى أوساطها بخوافى الطير ، وهى الريش الصغار فى أجنحتها ، حين تنقض كاسرة أجنحتها الانحدار ، وفى الديوان : « تنفض » بالفاء .

(٥) الصحن : الساحة . البهو : البيت الواسع .

(٦) صور : جمع صوراء أى مائلات بأوجهها وأعناقها . الدلفين : دابة بحرية يعتقدون أنها تنجى الغرقى .

تغْنى بساتينُها القُصْوى برؤيتها ... عن السحائب مُنْهلا عزاليها
كأنها حين لجَّت فى تدفقها ... يدُ الخليفةِ لمّا سالَ واديها
وزادَها زينة من بَعْد زَيْنتها ... أن اسْمَه يوم يُدْعَى من أساميها[١]
محفُوفةٌ برياضٍ لا تزال ترى ... ريش الطواويس تحكيه ويحكيها

فالبحترىّ يصف جمال هذه البركة وما تتمتع به من أنس وبهجة ، حتى كانت رتبتها فى الصدارة ، وكان البحر - على اتساعه - ثانيها ، وقد استولت الغيرة على نهر دجلة فتارة ينافسها ، وتارة يباهيها ، وأنى يكون لدجلة هذه المنافسة والمباهاة والخليفة نفسه كالئ الإسلام يرعى هذه البركة ويكلؤها برعايته حتى صار بناؤها - من دقائق الصنعة - وكأن الجن هم الذين ولوا إبداعه ، وتفننوا فى صنعه ، ولو أن بلقيس مرت بها لتوهمت أنها صرحُها .

إن الماء ليندفع إليها بشدّة وكأنه خيل أطلق سراحُها ، وإن ريح الصَّبا لتحدث فى مياهها خيوطاً متكسِّرة شبيهة بالدروع ، وهذه البركة تارة تداعبها أشعة الشمس الصافية وتضاحكها ، وتارة أخرى يبكيها الغيث بماء منهمر ، ولصفاء مياهها تنعكس نجوم السماء على صفحتها فيتوهم الرائى لها أن السماء قد ركِّبت فيها ، وتمتاز هذه البركة بعمقها وامتداد أطرافها حتى أن السمك المحصور فيها لا يكاد يصل إلى قرارها ، ولا يبلغ منتهاها « لبعد ما بين قاصيها ودانيها » وحينما ، يعوم السمك فى مياهها ينشر زعانفه فيشبه الطير حينما تنشر أجنحتها فى السماء فيبدو ما تحتها من الخوافى ، وللأسماك صحن فسيح فى أسفل هذه البركة وبهو فى أعاليها ، ولكى تأنس هذه الأسماك وتشعر أنها تعيش فى مناخها الطبيعى أقيم على حافة هذه البركة تمثال الدُّلْفين : (على هيئة نوع كبير من السمك)[٢] .

---

(١) اسم المتوكل : جعفر ، والجعفر : النهر فعد هنا البركة نهراً .

(٢) وقيل إن « الدلفين : دابة بحرية يعتقدون أنها تنجى الغرقى .

وكم كانت رؤية هذه البركة مصدر إسعاد للقاصى والدانى حتى أن الحدائق والبساتين التى تراها من بعيد لتنعم بالرّىّ ، وتغنى بهذه الرؤية عن السحاب وما يحمله من مطر ، وإن تدفّق الماء فى هذه البركة ليشبه ـ إلى حد كبير ـ تدفّق العطايا والصلات من يد الخليفة ، وهذه البركة جميلة بطبعها ، وزاد من جمالها أن اسم الخليفة مقتبس من أسمائها ، وأن الرياض المحيطة بها فيها من الورود اليانعة والزهور الجميلة ما يشبه ريش الطواويس فى ألوانها الزاهية وأشكالها العجيبة .

وقد علّق الآمدىّ على هذه النصوص الواردة فى وصف القصور والبركة بقوله : « فهذا من مشهور إحسان البحترى »[1] .

بهذا نصل إلى نهاية الفصل الثانى .

(١) الموازنة جـ ٣ ـ القسم الثانى ص ٦٦٦

الفصل الثالث

بين أبي تمام والبحترى

هناك موازنة عامة بين أبى تمام والبحترى فى وصف الربيع ، وهى تتضمن آراء عدد من النقاد فى القديم والحديث ، وسأعرض هذه للموازنة كما هى معقباً إياها بموازنة تفصيلية تتناول جوانب الاتفاق والاختلاف فيما بينهما ، وما انفرد به كل منهما :

فقد أورد الآمدى أبيات أبى تمام فى وصف الزهر والتى مطلعها :

رَقَّتْ حَوَاشِى الدَّهْرِ فَهْىَ تَمَرْمَرُ
وغَدا الثَّرى فى حَلْيِهِ يتكَسَّرُ (1)

ثم علق عليها بقوله : وهذه أبيات حسان ، وتشبيهات وتمثيلات صحيحة ، ولكن الصنعة وشدة التكلف ظاهران فيها ، وليس لفظها ، ولا نسجها بالحلو ، والجيد النادر فى هذا المعنى قول البحترى :

سقى الغيثُ أكناف الحِمى من مَحَلَّةٍ
إلى الحِقْفِ من رَمْلِ النَّقا المتقاودِ (2)

ولا زال مُخضرٌ من الغيث يانع   عليه بمحمرٍ من اللون جاسِدِ
شقائق يحملنَ النَّدى فكأنّهُ   دُمُوع التصابى فى خدود الخرائدِ

---

(1) ذكرت هذه القصيدة فيما سبق ص ١٩

(2) ذكرت هذه الابيات فيما سبق ص ٤٤-٤٥

فقول البحترىّ : « دموع التصابى » يريد دموع الدّلال [بدلا] وطلباً لشىء وتشوقاً إليه ، لا دموع حزْن وثُـكْلٍ ومصيبة فتمّم المعنى وحسّنه وكمله بقوله : « دموع التصابى »[1] .

وقال ابن درستويه : « قال لى البحترىُّ ، وقد اجتمعنا على خلوة عند المبرِّد ، وسلـكنا مسلـكا من المذاكرة : أشعرتَ أنى سبقتُ الناس كلَّهم إلى قولى :

شقائق يحملنَ الندى فـكأنه دموع التصابى فى خدود الخرائد
كأن يد الفتح بن خاقان أقبلتْ
تليها بتلك البـــارقات الرّواعِدِ

هـكذا أنشد . فاستحسن ذلك المبّرد استحساناً أسرف فيه ، وقال : ما سمعتُ مثل هذه الألفاظ الرطبة ، والعبارة العذبة لأحد تقدّمك ، ولا تأخر عنك ، فاعترته أريحيّة جرَّ بها رداء العُجب ؛ فـكأنه أعجبنى ما يُعجب الناس من مراجعة القول ؛ فقلت : يا أبا عُبادة ، لم تَسْبِق إلى هذا ، بل سبقك سعيد بن حميد الـكاتب إلى البيت الأول بقوله :

عَذُبَ الفراقُ لنا قُبيلَ وداعنا ثم اجترعنـــاه كسمٍّ ناقع
وكأنما أثر الدموع بخدِّها طَلٌّ تساقط فوقَ وردٍ يانع

وشركك فيه صديقنا أبو العباس الناشىء بما أنشدنيه آنفاً :

بكت للفِراقِ وقد راعنى بكاء الحبيب لبعد الديار
كأنّ الدموع على خدِّها بقيّه طَلٍّ على جُلّنار

(١) الموازنة ج ٣ ـ القسم الثانى من ص ٦٤٥ إلى ٦٥٠

وما أساء على بن جريج ، بل أحسن فى زيادته عليك بقوله :

لو كنت يوم الوداع شاهدنا ... وهن يطفين غُـــلَة الوجْد
لم تر إلا دُموع باكيــــــة ... تسفح من مقلة على خدٍّ
كأن تلك الدموع قطرُ ندى ... يقطُر من نرجس على وردِ

وسبقك أبو تمام إلى معنى البيتين معاً بقوله :

من كل زاهرة ترقرق بالندى ... فـكأنها عين إليـه تحدَّر
تبـدو ويحجبها الجميم كأنها ... عذْراء تبـدو تارة وتخفر
خَلْقٌ أطل من الربيع كأنَّهُ ... خُلقُ الإمام وهَدْيه المتنشِّرُ
فى الأرضِ من عدْل الإمام وجوده ... ومن الربيع الغضّ سُرْج تَزْهَرُ
يُنسى الربيع وما يروّض جوده ... أبداً على مرِّ الليالى يُذكر

قال : فشقَّ ذلك عليه ، وحلَّ حَبْوته ونهض ، فـكان آخر عهدى بمؤانسته ؛ وغلظ ذلك على محمد بن يزيد ، وقدح ذلك فى حالى عنده(١) .

فأبو تمام هنا له فضل السبق والزيادة ، أما البحترى فله فضل الإيجاز والإجادة .

ويقول الأستاذ سيد قطب :

« إن للألفاظ أرواحاً ، ووظيفة التعبير الجيد أن يطلق هذه الأرواح فى جوها الملائم لطبيعتها ، فتستطيع الإيحاء الـكامل والتعبير المثير .

---

(١) زهر الآداب وثمر الألباب لأبى إسحاق الحصرى ـ تحقيق وشرح / على محمد البجاوى ج ١ ص ٥٢٩ ـ ٥٣٠ ـ الطبعة الثانية ـ الحلبى .

ويقول أبو تمام :

إن ريبَ الزمان يُحْسن أن يهـدى الرزايا إلى ذوى الأحساب
فلهذا يجف بعـد اخضرارٍ قبل روض الوهاد روض الروابى

فنرى هنا ألفاظاً عارية من الظلال والإيقاع ، مجردة من الرمز والإيحاء ، ونجد بخاصّة كلمة « فلهذا » وهى تنقلنا إلى وضح الذهن الأجرد ، إلى منطق التعليل والقياس الظاهرى ، ونخرج بها من جو الشعر كله إلى جو مجرد من الظلال والشيات .

ويقول عن مشاهد الربيع :

من كل زاهرة ترقرق بالندى فكأنها عين إليك تحدَّرُ
تبدو ويحجبها الجميم كأنَّها عذراء تبـدو تارة وتخفرُ
حتى غَدَتْ وهداتها ونجادها فئتين فى حُلَلِ الربيع تبختر

والتعبير هنا أجود وأنسب ، وأدَلّ على جوّ الربيع البهيج وحيويته ، ولكن أين هى من أبيات البحترى[1] ومن طلاقتها التى تطلق بشاشة الربيع ؟ وأين هى من أبيات ابن الرومى عن ريح الصَّبا[2] ؟ ولعل للإيقاع

---

(١) يقصد أبياته التى أولها :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا من الحسن حتى كاد أن يتكلما

(٢) يقصد قوله .

هبت سحيراً فناجى الغصن صاحبه موسوساً وتنادى الطير إعلانا
ورق تغنى على خضر مهد لة تسمو بها وتشم الارض أحيانا
تخال طائرها نشوان من طرب والغصن من هزه عطفيه نشوانا

زهر الآداب جـ ١ ص ٥٣١ ، وديوان ابن الرومى تحقيق الدكتور/حسين نصار جـ ٦ ص ٢٤٦٠ - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨١ م

الموسيقى هنا فى الأبيات دخلاً فى جمود المشهد فى الحسّ عن الانطلاق الكامل. اقرأ « فكأنها عين إليك تحدّر » هذا التشديد فى « كأنها » وفى « تحدّر » يوحى بالتشدّد والتوقف فى جريان الإيقاع ، وفى ظل الصورة ؛ فالبيت يبدأ طليقاً خفيفاً « من كل زاهرة ترقرق بالنّدى » ، وينتهى متوقفاً غليظاً بالشطر الثانى ، والفرق بين إيقاعيهما وظليهما هو الفرق بين انسياب « ترقرق » وتقبض « تحدّر » ، وكذلك تبدو هذه الظاهرة : ظاهرة الانسياب والتقبض فى شطرى البيت الثانى : « تبدو ويحجبها الجميم كأنها » و « عذراء تبدو تارةً وتخفّر » فتخفّر هذه منقبضة متكتلة فى جوّ الربيع الطليق البهيج »[1] .

ويرى المازنى أن التصوير ينقل المنظر فى جملته وتفاصيله ، أمّا الشعر فينقل وقعه النفسىّ وأثره الوجدانىّ . ذلك يعنى أن المصور « إنما يلقى إليك المنظر مجرداً من خوالج النفس ومن وقعه فى الصدر .

نعم . . قد يحرك المنظر المرسوم خالجة ، أو عاطفة ، أو إحساساً فى قلبك ، غير أن المصور لا يسعه أن يُضمن المنظر إحساسه هو ، أو ينهى إليك كيف كان وقعه فى نفسه كما يستطيع أن يفعل الشاعر ؛ لأن الشعر ـ بطبيعته ـ مجاله العاطفة .

خذ مثلاً أبيات البحترى فى وصف الربيع :

أتاك الربيعُ الطلْق يختال ضاحكا

من الحسن حتى كاد أن يتكلّما

فلم يحاول أن يرسم لك صورة ، وإنما أفضى إليك بما أثاره الربيع من المعانى فى نفسه ، وبما حركه من طلب الانشراح فى عيد الطبيعة .

---

(١) النقد الادبى أصوله ومناهجه للأستاذ / سيد قطب ص ٧٣ : ٧٤ ـ الطبعة السادسة ١٤١٠ هـ ـ دار الشروق .

ولو أنك جئت بأبدع صورة مرسومة ، ووضعتها إلى جانب هذا الكلام أو غيره مما يجرى مجراه لما أغنت شيئاً ؛ لأن وظيفة المصور ليست أن يؤدى إليك التأثير ، بل أن يدع الصورة تؤثر بذاتها ، وبما تنطق به ، دون أن يعالج أداء الأثر الذى تحدثه »[١] .

وقد ذهب المازنى إلى أن الشعر ــ حتى لو كان شعراً جيداً ــ إذا اتجه إلى مجرد نقل المنظر ورسمه ، يكون قد ضيق على نفسه مجاله الأساسىّ ، وتعدّى على مجال لم يهيأ له أصلاً ، وهو مجال التصوير .

ومن الأمثلة التى اختارها المازنى لتوضيح ذلك أبيات أبى تمام الشهيرة فى وصف روضة :

يا صاحبىّ تقصّيا نظريكما ... تريا وجوه الأرض كيف تصور
تريا نهاراً مشمساً قد شابه ... زهر الربا فكأنما هو مقمِرُ

وجاء فى تعليقه عليها أن « الأبيات فى حد ذاتها ، وبالقياس إلى أمثالها مما فى الشعر حسنة جميلة ، ولكنها من حيث القدرة على تصوير المنظر للقارىء وإحضاره إلى ذهنه ليست إلا مظهراً للفشل التام ، والعجز البين اللذين يُمنى بهما من يريد أن يتخذ من القلم ريشةً كريشة المصوّر ؛ ذلك أن اللغة عاجزة عن أن ترسم لك جملة المنظر الذى تأخذه عينك حين تقع عليه »[٢] .

ويعلّق الدكتور / السيد العراقى على رأى المازنى هذا فيقول :

---

(١) إبراهيم عبد القادر المازنى إسهام رائد فى درس الادب المقارن : بحث منشور فى مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة للدكتور / السيد العراقى ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨ ـ العدد الثامن ١٤١٠ هـ

(٢) المصدر نفسه ص ٣٦٠ ـ ٣٦١ .

« ومع أن المازنى أثنى على الأبيات فى تعليقه نرى أنه لم يوفها حقها ، بل ربما نقول جانبه التوفيق فى اختيارها نموذجاً للشعر الذى يتجه إلى نقل المنظر دون التعبير عن أثره النفسى » ، انظر إلى قول أبى تمام فى الأبيات نفسها :

دنيا معاش للورى حتى إذا جاء الربيع فإنما هى منظر
أضحت تصوغ بطونها لظهورها نوراً تكاد له القلوب تنوّر
من كل زاهرة ترقرق بالندى فكأنها عين إليك تحدّر

ألا تنطق هذه الأبيات بحرارة أنفاس الشاعر ؟ وتموج بحركة وجدانه ؟ وتزخر بنبض عقله وقلبه ؟ إنها ليست مجرد نقل لمنظر بل فيها انفعال الشاعر معه ، وتعاطفه نحوه ، وماذا يُراد من شاعر أكثر من هذا ؟ »(1) .

والبيت الأول من هذه الأبيات الثلاثة كان موضع إعجاب وتقدير من الأستاذ أحمد أمين حيث قال :

ومما يؤسف له أن شعراء الطبيعة فى الأدب العربى عُنوا بالاستعارات والتشبيهات أكثر مما عُنوا بروح الطبيعة ، والطريقة المثلى فى شعر الطبيعة أن يشربها الشاعر ثم يبرزها إلى الناس كما شربها أو أن يفنى فيها فيغنى لها وبها ، تخرج شعرهم فيها أشبه ما يكون بالألعاب البهلوانية ، فمن النوع الجيد مثلا وصف أبى تمام للربيع :

دنيا معاش للورى حتى إذا جاء الربيع فإنما هى منظر

ومن النوع البهلوانى :

فأمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت وردا وعضّت على العنّاب بالبرد(2)

(1) إبراهيم عبد القادر المازنى إسهام رائد فى درس الأدب المقارن للدكتور السيد العراقى ص ٢٦١

(2) النقد الادبى - تأليف / أحمد أمين ص ٧٨ - الطبعة الخامسة ١٩٨٣ م دار الشباب للطباعة .

وبعد ، فهذه موازنه عامة وسمت بطابع الإجمال وتضمنت آراء الكثير من النقاد وعلى رأسهم الآمدىّ ، ولم يكن لنا فيها من جهد سوى أمانة النقل والتعليق الموجز على ما أورده ابن درستويه .

وقد انصبت هذه الآراء — فى مجملها — على عشرة أبيات فقط لأبى تمام ومثلها للبحترى وإن كان الآمدى تعليقات أخرى على بعض الأبيات سأشير إليها فى حينها .

وعلى الرغم من ثنائهم على أبيات أبى تمام واعترافهم بما فيها من تشبيهات صحيحة وتعبيرات دقيقة تدل على جو الربيع البهيج وحيويته إلا أن أكثرهم قد فضل عليها أبيات البحترى ؛ حيث أبدع فى تصوير بشاشة الربيع وحيويته وأفضى إلينا بما أثاره الربيع من المعانى فى نفسه .

ونظراً لأن هذه الآراء قد غلب عليها طابع الإجمال ، فضلا عن دورانها حول أبيات معدودة لكلّ من أبى تمام والبحترىّ فإنّنا نجد أنفسنا بحاجة إلى موازنة تفصيلية ؛ لنقف من خلالها على أوجه الاختلاف والاتفاق ، ومواطن الإبداع والإخفاق فيما أُثر عنهما من نصوص تتعلق بهذا الخصوص ، وقد تضمنت هذه الموازنة نقاطاً عدّة ، تغطىّ مجالات مختلفة تتعلق بوصف الربيع عند أبى تمام والبحترى ، وهذه النقاط أبرزُها فيما يلى :

(١) فى الاعتراف بفضل الشِّتاء ، وتأثيره فى الربيع ، يقول أبو تمام :

نزلتْ مقدِّمة المصيف حميدة ۝ ويَدُ الشِّتاء جَدِيدَةٌ لا تُكفَرُ

لَوْلاَ الَّذِى غَرَسَ الشِّتاء بِكَفِّهِ ۝ لاقى المصِيفُ هشائماً لا تثمرُ

كَمْ لَيلَةٍ آسَى البلادَ بنفسه ۝ فيها ويومٍ وبْلُهُ مُثْعنجِرُ

ويقول البحترى :

إنّ السماء إذا لم تبك مُقلَتُها
لَمْ تَضْحَكِ الأرْضُ عن شيء من الخُضرِ
والزَّهْرُ لا تنجلى أحْداقُه أبداً
إلا إذَا مَرِضَتْ مِن كَثْرَةِ المطرِ (١)

وهنا نجد اتفاقا بينهما فى التنويه والإشادة بفضل الشتاء وإقامة الدليل على ذلك ؛ فجمال الطبيعة فى الربيع مردّه إلى بكاء السماء ، وغرس الشتاء .

وفى هذا الاعتراف لون من الوفاء لهذا الشتاء المنقضى ، ولفتة مثالية من أبى تمام والبحترى لم نجدها عند كثير من الشعراء الذين تحدثوا عن فصل الربيع : فالشاعر الإنجليزى « توماس ناش Thomas Nashe » (١٥٦٧ ـ ١٦٠١ م) ـ على سبيل المثال ـ حينما تحدّث عن الربيع أنساه افتتانه به أن ينوّه بفضل الشتاء فقال فى قصيدة بعنوان :

(Spring الربيع)

Spring the sweet spring,
Is the year,s Pleasant King.
Then blooms eaeh thing
Then maids dance in ring
Cold doth not sting
The Pretty birds do sing (٢)

---

(١) ديوان البحترى ٢/١١١٦

(٢) A little Treasury of English Poetry - Edited by Rashad Rushdy - P. 3I - Anglo Egyptian Bookshop 4 th edition 1970 Printed by Dar Wahdan Press.

ومعنى الأبيات :

الربيع ، ذاك الربيع الجميل
ملك العام البهيج
فيه يُزهِرُ كل شيء
وترقص الفتيات فى حلقات
لم يعُدْ لسْعُ الصَّقِيع
بل شَدْو الطيور الجميلة

وربما يُدافَع عن هذا الشاعر فيُقال : إن الشتاء فى بلاده برد قارص ، حتى كان الصيف عندهم يعدل الربيع عندنا ؛ من هنا كانت شدة البرد شتاء أمر يحول بين هذا الشاعر وبين الثناء على هذا الشتاء ولا أدلّ على ذلك من قول « شكسبير : Shakespeare » فى محبوبته :

Shall I Compare Thee to a Summer's day ؟
Thou art more Lovely and more temperate (١)

هل لى أن أقارنكِ بيوم الصيف ؟
بل أنتِ أكثر حُبًّا واعتدالًا

فتراه حينما أراد أن يلتمس لها نظيراً وجده فى نهار الصيف ، وليس الربيع فما بالك بالشتاء ؟

---

(١) The golden Treasury of the Best Songs and Lyrical Poems in the English Language - Selected and arranged by Francis Turner Palgrave with a fifth book - selected by John Press - P. 12- Poem 18 oxford University Press.

وبناء عليه يمكن القول بأن « توماس ناش » كان صادقاً فى التعبير عن مشاعره ، وأن كلاً من أبى تمام والبحترىّ كان وفياً لفصل الشتاء المنقضى ، ومعترفاً بفضله وتأثيره فى الربيع الذى يليه .

بيد أن اعتراف أبى تمام جاء نصاً وصريحاً ، وواردا فى صدر حديثه عن الربيع ، وعند ابتهاج الدنيا بمقدمه ، مما يجعل تذكر الشتاء فى ذلك الوقت أدخل فى المثالية وأدلّ على الوفاء .

وقد استند فى دعواه إلى أدلة واضحة ، وحجج دامغة ترسّخ مآثر الشتاء على الدوام .

أمّا اعتراف البحترىّ فيستمدّ قوته من أسلوبىْ الشرط والقصر ، كما يستمدّ جماله من المقابلة الصادرة عن الشاعر بكل عفوية وتلقائية ، بيد أن هذا الاعتراف فيه شىء من التعميم والإبهام ؛ لأن بكاء السماء ليس مقصوراً على الشتاء ؛ فقد ينزل المطر فى فصل آخر .

وفضلاً عن ذلك فإن المتتبع للنصوص الشعرية عند كل منهما يدرك أن أبا تمام لم يصدر عنه ما ينقض هذا الاعتراف أو يخل بهذا الوفاء ، أما البحترىّ فسرعان ما يتحلل من وفائه هذا ؛ فإذا كان أبو تمام يقول :

نَزَلَتْ مُقدّمةُ المصيف حميدةً ويدُ الشتاءِ جديدةٌ لا تُكفَرُ

فإن البحترىّ يقول :

ذهبتْ جِدّةُ الشِّتاءِ ووافا نا شبيهاً بك الربيعُ الجديدُ(١)

---

(١) ورد هذا البيت فيما سبق ص ٣٤

وتراه فى موضع آخر يجعل الربيع مزهوًا بحسنه وجماله على الشتاء ، ويصوّر العلاقة بينهما تقوم على التفاخر ، وليس التواصل والتكامل :

فى روضة خضراء يُشرقُ نَورُها
أُسقى مجاجات الغيوم البجّس
فخر الربيعُ على الشتاء بحسنها
وكفى حضور الورد فَقْدَ النرجس[(١)]

وقدوم الربيع عنده جعل الشتاء يولى مدبراً ، وكأنه شخص خائف متنكر :

ألم تر تغْليسَ الربيع المبكّرِ
وما حاك من نَشر الرّياض المنشّر
وسَرْعانَ ما ولّى الشتاء ولم يقفْ
تسلُّل شخص الخائف المتنكر[(٢)]

فهل يتفق ذلك مع اعترافه السابق ؟!

٢ — وفى التعبير عن فرح الطبيعة بقدوم الربيع يقول أبو تمام :

رقت حواشى الدهرِ فَهْى تمرمر وغدا الثرى فى حليه يتكسّرُ

ويقول البحترىّ :

أتاكَ الربيع الطلق يختال ضاحكا
من الحسن حتى كاد أن يتكلما

---

(١) ورد هذان البيتان ص ٤٠

(٢) ورد هذان البيتان فيما سبق ص ٤٢

وبالتأمل نجد أن كلا من أبى تمام والبحترى يعبر عما خالج النفس من الإحساس بالربيع وجماله وفتنته ، ويستقبل منه نزهة أرواح وأفكار ، وفرحة قلوب وأبصار .

فالأول يحسّ فى مقدمه أن صارت الحياة مترفة لينة ، وصار نبت الثرى مزهواً بجماله متهاديا فى حركته .

والثانى يخيل إليه أن هذا الربيع يختال ضاحكا من الحسن ، ويهمّ بالكلام ؛ لفرط ما فى أعطافه من الحيوية والتفتح والابتسام .

والبيتان وإن دلاّ على جوّ الربيع وتأثيره وحيويته إلا أن بيت البحترى فيه من الحيويّة والطلاقة أكثر مما فى بيت أبى تمام ، وبخاصة حينما يحمل المعنى فيهما على الحقيقة ، فقد حمل الأستاذ / سيد قطب بيت البحترى على الحقيقة ، ولم ير فيه خيالا شاعرياً يخالف الحقيقة العلميّة فقال : « قد يُخيل للكثيرين أنه إنما أراد تشبيه الربيع بإنسان يضحك على سبيل التشبيه لا على سبيل « الواقع » ، وهكذا يقول البلاغيون ؛ لأن الواقع الظاهر يمنع أن يختال الربيع ضاحكا ولكن الحقيقة الأكبر من الواقع الظاهرىّ أن الربيع يختال ضاحكا فى حقيقته ؛ فما الضحك ؟ أليس هو إطلاق طاقة فائضة بطريقة حسيّة ؟ وماذا يصنع الربيع إلا أن يطلق طاقة حيويّة فائضة فى الأرض وأبنائها الأحياء ! إنها حقيقة ، ولكنها هنالك فى الأعماق »[1] .

٣ — وعن تأثير الربيع فى الكون مجيئاً ورحيلا يقول أبو تمام :

ما كانت الأيام تسلب بهجة   لو أن حُسْنَ الروض كان يعمر

ويقول البحترى :

أحلّ فأبدى للعيون بشاشة   وكان قذى للعين إذ كان محرما

---

(١) النقد الادبى أصوله ومناهجه ص ١٤

فالأول يقول : لو دام حسن الروض لدامت بهجة الأيام ، ولكن حسن الروض لا يعمِّر ، وبهجة الأيام لا تدوم .

والثانى يرى فى الربيع قرّة للعيون ، وفتنة للناظرين . وبمقدمه يختفى كل ما فى الدنيا من قذى وعبوس .

فكلاهما يبرز تأثير الربيع فى الكون جيئة وذهوبا ، فبدون الربيع تفقد الأيام بهجتها ، وتسدل الطبيعة أستارها ، وتصبح الأرض هامدة ، والأشجار عارية متجرِّدة ، فإذا جاء الربيع هتك هذه الأستار ، وازدانت الأشجار بما خلع عليها الربيع من أوراق وأزهار ، وأنبتت الأرض من كل زوج بهيج .

فهما متفقان على أن الربيع بهجة للنفوس ، وقرة للعيون ، و « ليس لما قرّت به العين ثمن »[١] .

وقد عرض أبو تمام هذا المعنى بطريق اللزوم (المقابلة الضمنية) ، بينما توصّل إليه البحترى بتصوير واضح ، ومقابلة صريحة ، وهنا يُثار سؤال : هل الربيع هو مصدر البهجة ، أم أنها تنبع من داخل الإنسان ذاته ؟

المفهوم من قول أبى تمام والبحترى أن الربيع هو مصدر البهجة ومنبع الجمال ، ولكن الأمر ليس كذلك ؛ لأن المصدر الحقيقى للبهجة هو الإنسان ذاته ، والربيع يشرق فى النفوس قبل إشراقه فى المروج والرياض ، ودليلنا على هذا قول العقاد :

« والربيع ربيع فى النفوس لا فيما تراه من زخرف الأرض والسماء .

يحيينا بأزهار خفية تتفتح فى ضمائرنا أجمل وأبهج وأحب إلينا من هذه الأزهار التى تتفتح فى الرياض ، ويحبونا بخصب فى القلوب أغنى وأوفر من ذلك

(١) مجمع الامثال ٣ / ٨٦

الخصب الذى ينبت منه الشجر ويزكو فيه الثمر . . . ولولا الربيع الذى يشرق فى النفوس لما أشرق الربيع فى أرض ولا سماء ، ولولا الطيور التى تهتف فى الخواطر ، وترفرف فى فسحة الأمل لما أطربتنا الطيور التى تهتف على الأغصان وترفرف فى الأجواء . . .

وأحسب لو أن الربيع بقى لنا وخلا وجه الأرض من كل ناجمة ونابتة لما نقصت نشوتنا بجمال الحياة شيئاً ، ولا افتقدنا فى خارج نفوسنا دليلاً من دلائل الغبطة والشوق ، ولا غاب شىء من تلك الدنيا التى تشتمل عليها الضمائر والقلوب »[1] .

وكلام العقاد هذا صحيح تماماً ؛ فمن يراجع أبيات أبى تمام التى يصوّر فيها مشاعر الطير فى الربيع[2] يجد أن هذا الشاعر قد بدا مهموماً وكل ما فى الكون من حوله يفيض أُنساً وحُبوراً ، لذا ينصح إيليّا أبو ماضى فيقول :

أيّهذا الشاكى وما بكَ داء   كُنْ جميلاً ، تر الوجود جميلا[3]

٤ — وفى تصوير الطقس واعتدال المناخ فى الربيع يقول أبو تمام :

بوركت من وقت ومن أوان   فالأرض نشوى من ثرى نشوان

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ / عباس محمود العقاد ـ المجلد الخامس والعشرون (الأدب والنقد) ص ٤٤٧ ـ ٤٤٩ ـ دار الكتاب اللبنانى ـ بيروت ـ الطبعة الاولى ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م

(٢) ذكرت هذه الابيات فيما سبق ص ١٥

(٣) إيليا أبو ماضى (شاعر المهجر الأكبر) شعر ودراسة للشاعر الفقيد زهير مرزا ص ٦٢٤ ـ دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر ـ الطبعة الثانية ١٩٦٣

وفى موضع آخر :

مطر تذوق الصحو منه وبعده ... صحو يكاد من الغضارة يمطر
غيثان : فالأنواء غيث ظاهر ... لك وجهه والصحو غيث مضمر
وندى إذا ادهنت به لمم الثرى ... خلت السحاب أتاه و هو معذر
يا صاحبىّ تقصّيا نظريكما ... تريا وجوه الأرض كيف تصور
تريا نهاراً مشمساً قد شابه ... زهر الربا فكأنما هو مُقمِرُ

ويقول البحترىّ :

أما ترى الأرض وأثوابها ... شقائق النعمان والأقحوان
وهذه الأيام قد أبدلت ... فهى ظراف ناضرات حسان
فصدت فى النيروز عرقا وقد ... تُخُيِّرَ الوقتُ وطاب الأوان

وفى موضع آخر :

ورّق نسيمُ الرِّيح حتى حَسِبْتُهُ ... يجىء بأنفاس الأحبّةِ نُعَّما

والشاعران متفقان هنا على أن وقت الربيع خير أوقات العام قاطبة ، بيد أن صورة الطقس وعناصر المناخ مكتملة عند أبى تمام أكثر منها عند البحترى ؛ فالأول يصوِّر الجوّ بصحْوه وغيمه ، والنهار بشمسه وكأنه مُقمر ؛ فالمطر إذا جاء تبينت منه أنه يقلع ولا يدوم ، ومَرْعان ما يعقبه صحو ندىّ ومرتوٍ يكاد ـ لغضارته ـ يمطر ، وقد خففت الأزهار من حدة شمس النهار فبدا هادئاً وديعاً كأنما ينيره القمر .

إنّ وصف أمطار الربيع على هذا النحو يعتمد على تقدير زمنىّ دقيق صار مضرب المثل فقيل « غضب العشاق كمطر الربيع »[1] .

---

(١) مجمع الأمثال ٢ / ٤٣٣

كما أن تصوير شمس الربيع على هذه الصورة يُعَد براعة فائقة ويشهد لصحته قول مسكويه فى شمس الربيع :

والشمس محجوبة عنّا سوى لُمع

يستطن من ورق الأشجار كالورق[١]

أما البحترى فقد وصف أوقات الربيع بأنها « ظراف ناضرات حسان » ولم يأت من شواهد الاستدلال على ذلك إلا بـ « نسيم الريح » فقد وصفه بأنه رقيق كأنفاس الأحبّة وهم فى سرور وغبطة ، فمناصر المناخ عنده غير مكتملة ، ولكن إذا تأملنا أبياته وهو يعرض مشاهد الربيع فى « بطياس »[٢] لأمكن أن نجد فيها ما يقربه من أبى تمام فى حديثه عن شمس الربيع ، فما أورده البحترى فى ذلك قوله :

وفى أرجوانىّ من النوْر أحمر يشاب بإفرند من الروض أخضر

إذا ما الندى وافاه صبحاً تمايلتْ

أعاليه من دُرّ نثير وجوهر

إذا قابلته الشمسُ ردّ ضياءها

عليها صقال الأقحوان المنوّر

فالبحترى هنا قد أخبرنا بأن أزهار الأقحوان تعكس ضياء الشمس وحرارتها ، وهذا بدوره يؤدى إلى انكسار أشعتها وتخفيف حرارتها ، وبهذا يكون قد تلاقى مع أستاذه أبى تمام حين قال :

تريا نهاراً مشمساً قد شابه زهر الربا فكأنما هو مُقْمِرُ

---

(١) محاضرات الأدباء ٤ / ٥٧٣

(٢) ذكرت هذه الابيات فيما سبق ص ٤٢

٥ — وفى الدعوة إلى التمتع بالربيع وبهجته قال أبو تمام :

يا صاحبىّ تقصّيا نظريكما   تريا وجوه الأرض كيف تصورُ
تريا نهاراً مشمساً قد شابه   زهر الربا فكأنما هو مُقمِرُ
دنيا معاش للورى حتى إذا   جاء الربيع فإنما هى منظرُ

وقال البحترىّ :

فاشْرَب على زهر الرياض يشوبه   زَهر الخدود وزهرة الصهباء
من قهوة تُنسى الهمومَ وتبعث الـ
شّوْق الذى قد ضَلّ فى الأحشاء(١)

وقال :

فما يحبس الراحَ التى أنت خِلُّها   وما يمنع الأوتار أن تترنَّما

ومما قاله أيضاً فى وصف مجالس اللهو أثناء الربيع :

لا تسقيانى بالصغير فإنه   يوم تليق به كبار الأكؤس

والشاعران كلاهما يدعو إلى التمتع بأوقات الربيع وبهجته ، ولكن الفرق بينهما عميق ، والبون شاسع ؛ فأبو تمام يرى الدنيا فى غير أوقات الربيع ميدان سعى وكدْح ، فإذا ما حلّ الربيع كان فرصة لالتقاط الأنفاس . والتمتع بمناخه المعتدل ، ورياضه الغنّاء .

وقد كان أبو تمام مقتصداً إلى حدّ كبير فى ارتياد مجالس اللهو أثناء الربيع(٢) .

---

(١) ذكر البيتان ص ٣٣
(٢) أشرت إلى ذلك ص ٢٤

أما البحترى فقد أسرف على نفسه فى ارتياد هذه المجالس هو وأقرانه ـ ووصف مايدور فيها ، حيث كانت البساتين حول سامرّاء وبغداد تمتلئ بحانات الخمر والسماع ، وكان البحترى وأصحابه يختلفون إليها ، وقد يختلون بأنفسهم إلى زاوية فى بستان ويتخذون منها لأنفسهم حانة يشربون فيها على أزهار الرياض ، وأبصارهم تتملى بجمال الجوارى وآذانهم تتمتع بالسماع ، وكثيراً ما صوّر البحترى هذا المتاع المضاعف بجمال الطبيعة ، وجمال المرأة ونشوة الخمر كما تنطق بذلك أبياته فمتعته فى الربيع لا تقتصر على الحدّ الذى صوّره أبو تمام ، بل تراه يهيب بالراح والأوتار ، ويحتسى من الخمر كبار الكؤوس ويملّى أبصاره بجمال الجوارى[١] .

إن التمتع بالربيع ينبغى أن يكون على النحو المشار إليه عند أبى تمام والوارد من قبل فى قول الإمام علىّ كرّم الله وجهه :

« إذا دخلت البساتين فأطل تأملها ؛ فإن فيها جلاء للبصر ، وارتياحاً للهم والفكرة ، وتكرمة للطبائع وتسكيناً للصداع »[٢] .

ومتعة أبى تمام بالربيع يمكن أن تكون فى إطار مقولة الإمام علىّ هذه ومقولة أبى الدرداء : « إنى لأستجم نفسى بشىء من الباطل ، لتكون أقوى على الحق »[٣] .

لذا كانت دعوة هذا الشاعر دعوة حق وصدق ، وفيها من العفة وتقديس الجمال ما لم نره عند البحترى الذى لم يرْعَ لهذه الرياض حرمتها !

---

(١) العصر العباسى الثانى للدكتور / شوقى ضيف ص ٩٣ « بتصرف » ـ الطبعة الثالثة دار المعارف ـ ١٩٧٣ م

(٢) محاضرات الادباء ج ٤ ص ٥٦٨

(٣) الكامل للمبرد ج ٢ ص ٢٨٥

فهلاَّ ذكَّره تفتح البراعم الخضراء عن أزهار تختلف أشكالها وتتعدد ألوانها ـ بقدرة الخالق وبدائع صنعه على نحو ما كان من أبى تمام حين قال :

صنع الذى لولا بدائع صُنْعِه ... ما عاد أصفر بعد إذ هو أخضر

وهلاَّ ذكَّره جمال الطبيعة فى الربيع بعظمة الخالق وتفرّده ، على نحو ما كان من ابن محارب القمىّ ؛ إذ يقف فى الروض ويشاهد ما فيه من زهر الربيع ، ويطالب إلى الناس أن تتأمل هذا الجمال الذى أبدعته يد القادر العظيم ، ويرى أن النرجس ما وقف على عيدانه إلا ليؤكد أن الله واحد لا شريك له ؟ :

تأمّلْ فى نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليكُ
عُيونٌ من لُجيْنٍ شاخِصَاتٌ ... كأنّ حِدَاقها ذَهَبٌ سَبِيكُ
على قُضُب الزَّبرجد شاهِداتٌ ... بِأنّ اللهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ(١)

وهَلاَّ صان البحترى لهذا الجمال حرمتَه ، وقدسيّته ، على النحو الذى تمنّاه الصنوبرىّ إذ قال :

لو كنتُ أملكُ للرِّياض صيانة ... يَوْماً لما وطىء اللئام ترابها ؟(٢)

كل هذا لم يحرص عليه البحترى قائلاً :

وتذكرت وافد الشيب فاستة ... جَلْتُ حظى فى الراح والريحان

والبحترى فى مسلكه هذا يشير إلى عادة ألفها كثير من الشعراء وهى الإقبال على مجالس الشراب واللهو وبخاصّة فى زمن الربيع ، على حين كان الأجدر بهم أن يزدادوا اقترابا من ربِّهم .

(١) محاضرات الأدباء ٤ / ٥٦٩
(٢) ديوان الصنوبرى ص ٤٥٤

وقد انتقد العقاد مسلكهم هذا بقوله فى مقال بعنوان (بين الله والطبيعة) « أيُعْبَد الله فى مكان خير من هذا المكان ؟؟ أليس الله أقرب قريب من حيث تنبت الحياة ويحيا النبات ؟؟ فلماذا لا يعبدون الله ربهم فى المروج والبساتين ؟ ولماذا يبنون الجدار ليسبحوا باسم الله ولا يغرسون الشجر ليسبحوا باسمه ؟ ؟

. . . أليست الزهرة الناضرة أصدق رمز لحياة الأرض وخلودها ، وأوجز مثال لزوال الحياة وتجددها »[١] ؟ .

٦ — وفى تشبيه الممدوح بالربيع يقول أبو تمام فى مدْح المعتصم :

أربيعنا فى تسع عشرة حجة حقاً لهنك للربيع الأزهرُ
خُلق أطلّ من الربيع كأنه خُلُق الإمام وهدْيه المتيسِّرُ
فى الأرضِ من عدْل الإمام وجوده
ومن النبات الغضُّ سُرْجٌ تزهَرُ
تُنْسَى الرياضُ وما يروّض فعله
أبداً على مرِّ الليالى يُذكَرُ
إن الخليفة حين يُظلم حادثٌ عينُ الهدّى وله الخلافة محْجِرُ[٢]

ويقول فى مدْح مالك بن طوْق التغلبىّ :

نال الجزيرة إمحال فقلْتُ لهم شيموا نداه إذا ما البرقُ لم يُشَم
فما الربيع على أنس البلاد به أشدّ خُضْرة عُودٍ منه القُحَم[٣]

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات الاستاذ / عباس محمود العقاد جـ ٢٥ ص ٢٦٦ - ٢٦٧
(٢) ديوان أبى تمام جـ ٢ ص ١٩٦
(٣) نفسه ٣ / ١٨٧

وعقد البحترى صلة بين الربيع والممدوح فى مواضع مختلفة[١] من شعره منها قوله فى مدح المتوكل :

لو كنتُ أحسدُ أو أُنافس معشراً
لحسدتُ أو نافسْتُ أهل الموصل

غشّى الربيع ديارهم وغشيتها ... وكلا كما ذو عارض مُتهلِّل
فأضاء منها كل فجّ مُظلمٍ ... بكما ،وأُخْصِب كل وادٍ مُمْحِلِ[٢]

وقال أيضاً يمدح الحسين بن الحسن بن سهل :

ويُريك الأحبابَ يوم تلاقٍ ... باعتناق الحوذان والأقحوان
صاغ منها الربيع شكلاً لأخلا ... ق حُسينٍ ذى الجودِ والإحسان[٣]

وقال يستسقى نبيذاً من أبى نوح :

إنى لأضمر للربيع محبّةً ... إذ كنتُ أعْتَدّهُ الربيع أخاً لكا[٤]

وواضح أن كلا من أبى تمام والبحترى يشبه ممدوحه بالربيع ، ويتخذ من جمال الطبيعة فيه رمزاً لممدوحه فى عظم حسنه ، ووفرة عطاياه ، فكما أن الربيع يكثر خيره ، ويعمّ نفعه فكذلك الممدوح .

وقد حرص كل من أبى تمام والبحترى على أن يجعل الصلة بين الربيع والممدوح لا تقف عند الجانب المادىّ فحسب ، بل تتعدّاه لتشمل الجانب الأخلاقى كذلك ، بيد أن أبا تمام قد حرص على أن يظهر تفوق

---

(١) انظر ديوان البحترى ١ / ٥٦٢ ، و٢ / ١٣١٥

(٢) ذكرت هذه الأبيات فيما سبق ص ٣٦

(٣) ذكر هذان البيتان فيما سبق ص ٤٨

(٤) ذكر هذا البيت فيما سبق ص ٣٥

الممدوح على الربيع خَلْقاً و خُلُقاً ، مما جعل ذكره على مرّ الليالى باقياً ، فى حين وقف البحترى عند حدّ التسوية والمؤاخاة بينهما .

وقد علّق الآمدى على قول أبى تمام : « خُلق أطَلَّ من الربيع كأنه خلق الإمام » بأنه معنى صحيح ، أما « المتيسِّر » فقافيته رديئة جداً[1] ، كما علق على قول البحترى :

ويريك الأحباب يوم تلاق . . . . . .
صاغ منها الربيع شكلا لأخلا ق . . . . .

فقال : « وهذا أيضاً خروج ليست له قوة لفظ ، ولا حلاوة فيه ولا معنى »[2] .

٧ — وفى الجمال والبهجة وحسن الوجوه ذكر الآمدى قول أبى تمام :

رُودٌ أصابتها النَّوى فى خُرَّدٍ ... كانت بدور دُجُنّةٍ وشموساً
وكأنّما أهدى شقائقه إلى ... وجناتهن ضُحى أبو قابوسا
بيضاً يُدِرْنَ عيونهنّ إلى الصِّبا ... فكأنهنّ بها يُدِرْن كؤوساً

ثم علّق عليه بقوله : « وهذه أبيات صالحة » ثم جُنّ بعد هذا فقال :

لولا حداثتها وأنى لا أرى ... عرشاً لها لظننتها بلقيساً

فأىُّ شىء يزيدك على هذه الحماقة[3] ؟

ثم أورد قول البحترى :

سفرتْ كما سفر الربيع الطّلق عن ... وزد يرقرقه الضحى مصقول

(١) الموازنة ٢ / ٣١٩
(٢) الموازنة ٢ / ٣١٩
(٣) الموازنة ٢ / ١٠٣

وتبسّمتْ عن لؤلؤ فى رصْفه ... بَرَد يردُّ حُشاشة المتبول[1]

وعلّق عليه بقوله : « أىّ شىء يزيدك على هذا الإحسان »[2] .

وقد ذكرت فيما سبق أن البحترى قد شبه الخدود بالورود ثم اعترف فى موضع آخر بأن ورد الربيع وجُلّناره أبهى من الخدود الحسان[3] .

على أن قول البحترى :

سفرتْ كما سفر الربيع . . .

يمكن أيضاً موازنته بقول أبى تمام عن الوردة فى الربيع :

تبدو ويحجبها الجميم كأنها ... عذْراء تبدو تارة وتخفّر

فكلاهما يعقد شبهاً بين ورد الربيع والغيد الحسان ، وإن كانت الوردة مشبهة عند أبى تمام ومشبّهاً بها عند البحترى .

وإذا كان الآمدى قد أثنى على قول البحترى قائلا :

« أىّ شىء يزيدك على هذا الإحسان » فإن أبا تمام يعرض هنا لوحة فنية تعد غاية فى الحسن كذلك ألا وهى صورة الشجرة الزاهرة التى يُداعب النسيم أوراقها وأزهارها فتبدو هذه الأزهار تارة ، ويسترها تكاثف الأشجار تارة أخرى ، فيخيل إليك أنها فتاة عذراء تستجمع شجاعتها فتبدو تارةً ، ويستولى عليها الحياء فتختفى تارة أخرى .

---

(١) الموازنة ٢ / ١٠٣ ، ١٠٤ ، ديوان البحترى ٣ / ١٩٣٩

(٢) الموازنة ٢ / ١٠٣ ، ١٠٤

(٣) راجع ص ٤٤ من البحث .

٨ — تحدث الشاعران عن ترنم الطير على أغصانها فى الربيع فقال أبو تمام :

غنّى فشاقك طائر غــرِّيد ... لما ترنَّم والغصون تميـــد
ساق على ساق دعا قمــرية ... فدعت تقاسمه الهــوى وتصيد
إلفانِ فى ظلّ الغصون تألّفا ... والتفَّ بينهما هوى معقـود
يتطعمان بريق هذا هــذه ... مجماً وذاك بريق تلك معيد
يا طائران تمتعــا هُنّيتما ... وعما الصباحَ فإننى مجهـــود
أبكى وقد سمتِ البروقَ مضيئة ... من كل أقطار السماء رعودُ
واهتز ريعان الشباب فأشرقت ... لتهلّل الشجر القرى والبيد
ومضت طواويس العراق فأشرقت
أذناب مشرقة وهن حفـــودُ
يرفُلْنَ أمثالَ العذارى طوّفاً ... حول الدّوارِ وقد تدانى العيدُ

وقال البحترىّ :

وكم بالجزيرة من روضـــة ... تُضاحِكُ دِجْـــلَةُ نُعْبانَها
إذا غرّد الطير فيها ثنت ... إليك الأغانى ألحانهـــا

وقال أيضاً :

وروضٍ كساه الطّلّ وَشْياً مجدداً ... فأضحى مقيما للنفوس ومُقْعدا
وغَنّت به وُرْق الحمائم حَوْلَنا ... غِناءً يُنسِّيك الغريض ومعبدا

والشاعران متفقان هنا على أن هذا الشدْو إنما كان بصوت عذب رخيم ، وآية ذلك عند الأول قوله : « شاقك » ، و « غرِّيد » ، و « ترنم » ،

وعند الثانى قوله : « غَرّد » ، و « ثنت إليك الأغانى ألحانها » ، « غناء يُنسِّيك الغريض ومعبدا » : مغنيان مشهوران لهما قدم راسخة فى هذا الميدان .

بيد أنى أرى تفوّق أبى تمام على تلميذه البحترى فى هذا الخصوص ؛ لأن كلمة « شاقك » إنما تعنى هيّج مشاعرك ، وأثار كوامن أحاسيسك ، وتلك آية الخشوع وغاية التأثر .

أما ترديد الألحان ، أو نسيان الغريض ومعبد فلا يصل إلى تلك المرتبة ، بل لا تكاد تصل إليها أيضاً أبيات ابن الرومى التى قالها فى ريح الصبا ، وأبدع فيها كثيراً فى تصوير الطير وهى تنعم بين الغصون فقال[1] :

هبّتْ سُحَيْراً فناجى الغصْن صاحبه
مُوَسْوِساً وتَنادى الطـــيرُ إعلانا
وُرْقٌ تغـــنى على خُضْرٍ مُهَدّلةٍ
تسمو بها ، وتشَمُّ الأرض أحيانا
تخالُ طائرَها نَشْوانَ من طَرَبٍ
والغصْن من هزّه عِطفَيه نشوانا

فأبيات ابن الرومى هذه إبداع فَنِّى بلا شك ، وهى تستحوذ على رضا كثير من النقاد ، وإن كنت أراها دون أبيات أبى تمام ؛ فهو شاعر يمكن القول بأنه لا يُبارَى فى تصوير مشاعر الطير وأحاسيسه ، وقد أبدع هنا أيما إبداع فى تصويره لقُمْرية وقُمْرِىّ وهما يرشفان رحيق الهوى فى سعادة وحبور ، بينما هو يخيِّم عليه الأسى ، وكأن السماء ترثى له فتستهلّ بروقها ورعودها ،

(١) زهر الآداب ١ / ٥٣١ ، وديوان ابن الرومى ٦ / ٢٤٦٠

والطبيعة من حوله مزدانة بحلل الربيع المشرقة ، وطواويس العراق تومض بألوانها الزاهية ، وأذنابها المزركشة وكأنها خدم هذا العرس الرائع من أعراس الربيع .

ونلحظ هنا أن أبا تمام لم يُردْ أن ينسحب حزنه على الكائنات من حوله كما فعل أبو فراس فى رائيته الشهيرة حين قال :

مُعللّتى بالوصل والموت دونه ... إذا مت ظمآناً فلا نزل القطْر(١)

فموقف أبى تمام مختلف تماماً عن هذا ؛ فهو يدعو لهذين الطائرين بالمتعة والهناءة فى ظلال الأيك ، على الرغم من كونه حزيناً ومجهوداً ، وفى هذا من المثاليّة ما لا يخفى ، وإن كنت آخذ عليه فى البيت الأخير :

يرفُلْنَ أمثالَ العذارَى طُوَّفا ... حول الدَّوار وقد تدانَى العيد

إحياءه صورة جاهليّة تتمثل فى هيئة الفتيات العذارَى وهن يطفن حول الصنم « دوار »(٢) ممـا قد ينبىء عن إفلاسه فى هذا الخصوص .

٩ — اختلاط عند أبى تمام وصْف الرياض والأنوار بوصف الخمر ومجالس اللهو ومعاطاة الندْمان فى قصائد قليلة أوردها الآمدى(٣) ومنها :

ومُعرَّسٍ للغيث تخفق بينه ... راياتُ كلِّ دُجُنَّةٍ وطفاءِ

---

(١) ديوان أبى فراس الحمدانى ص ٥٧ ـ دار بيروت للطباعة والنشر ـ بيروت

(٢) يقول امرؤ القيس فى وصف الصيد :

فعن لنا سرب كأن نعاجه ... عذارى دوار فى الملاء المذيل

ديوان امرىء القيس ـ تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ص ٢٢ ـ الطبعة الثانية ـ دار المعارف بالقاهرة ـ ١٣٣٥ هـ ـ ١٩٦٤ م

(٣) الموازنة جـ ٣ ـ القسم الثانى ص ٥٩٧

نشرتْ حدائقه فصرنَ مآلفاً لطرائف الأنواء والأنداء
فسقاه مسْكَ الطّلِّ كافورُ الصَّبا وانحلّ فيه خَيْطُ كلِّ سماء
عُنى الربيعُ بروْضِه فكأنّما أهْدَى إليه الوشْيَ مِنْ صنعاء
صَبّحْتُه بِسُلافةٍ صَبّحْتُها بِسُلافةِ الخُلطاءِ والنُّدَماءِ
بِمُدامةٍ تَغدُو المنى لكؤوسها خَوَلاً على السّراء والضّراء(١)
راحٌ إذا ما الراح كن مطيّها كانت مطايا الشوق فى الأحشاء
عِنَبيّةٌ ذهبيّة سَبكتْ لها ذَهبَ المعانى صاغةُ الشعراء
صعُبت وراضَ المزْجُ سيء خُلْقها فتعلّمتْ من حُسْنِ خُلْق الماء
خرْقاء تلعبُ بالعقول حَبابُها كتَلَعُّبِ الأفعال بالأسماء
وضعيفةٌ فإذا أصابتْ فُرْصةً قتلتْ ، كذلك قُدْرة الضعفاء
جَهْميّة الأوصافِ إلا أنهم قدْ لقّبوها جوهرَ الأشياء(٢)
وكأن بهجتها وبهجَة كأسها نارٌ ونورٌ قُيِّدا بوعاء(٣)

---

(١) الخول : أصله ما يملكه الإنسان مما خوله الله .

(٢) يقول الآمدى : « قوله ، جهمية الأوصاف ، قد أكثر الناس فى تعاطى تفسيره وأقرب ما سمعته فيه أن « جهماً » كان يقول : إنه ليس شيء على الحقيقة غير الله تعالى ؛ إذ كل شيء يبطل ويتلاشى غيره ، وأن الأشياء ، كلها أعراض ألفها وخلقها .

وأظن أبا تمام أراد ان الراح لرقتها عرض لا جسم ، وهذا مذهب قريب » الموازنة ج ٣ ـ القسم الثانى ص ٥٩٩

(٣) شبه الخمر بالنار والزجاج بالنور وإنما قال : « قيدا بوعاء » ، لأن النار والنور لا يقومان بأنفسهما ، فكأنهما جميعاً جمعا فى إناء أمسكهما وهذا معنى جيد ، وهو مسبوق إليه » الموازنة ج ٣ ـ القسم الثانى ص ٦٠١

أو دُرةٌ بيضاء بكرٌ أطبقتْ حَبَلاً على الياقوتة الحمراء[1]

وقد وصف الآمدى أكثر هذه الأبيات بالجودة ، وقال : « وليس له فى شىء منها معنى مخترع ، وإنما اتبع فيها كلّها مذاهب الناس »[2] .

أمّا البحترى فقد توسّع فى هذا الباب ؛ فجاء وصف الربيع عنده مصحوباً ـ فى مواضع كثيرة ـ بوصف مجالس اللهو والشراب ، ومن ذلك قوله :

أخذتْ قُصور الصالحيّة زينةً عجباً من الصفراء والحمراءِ
نسج الربيعُ لربْعها ديباجةً من جوْهَر الأنوار بالأنواءِ
بكت السماء بها رَذاذَ دُموعها فغدتْ تبسّم عن نجوم سماءِ
فى حُلّةٍ خضراء نمنم وشْيَها حَوْكُ الربيع وحُلّة صفراءِ
فاشربْ على زَهْر الرياضِ يشوبه
زَهْرُ الخُـدودِ وزهرةُ الصهْباءِ
منْ قهوة ـ تُنْسى الهمومَ وتبعث الـ
(م) شّوْق الذى قد ضَلّ فى الأحشاء
يُخفى الزجاجةَ لونُها ، فكأنها فى الكف قائمةٌ بغير إناءِ
ولها نسيمٌ كالرياضِ تنفّسَتْ فى أوْجُه الأرواح والأنداءِ
وفواقع مِثْلُ الدّموع تردّدَتْ فى صَحْنِ خدِّ الكاعب الحسناءِ

---

(١) علق الآمدى على هذا البيت بقوله : « مازلت أسمعهم يستخفون لفظه ويستهجنون قوله . « أطبقت حبلا »

(٢) الموازنة ج ٢ ـ القسم الثانى ص ٦٠١

يسقيكها رشأٌ يكادُ يَرُدُّها ‏ سَكْرى بفترةِ مُقْلَةٍ حَوْرَاءِ
يسْعى بها ، وبمثلها مِنْ طَرْفِهِ ‏ عَوْداً وإبداءً على النُّدَمَاءِ

وقد أورد الآمدى هذه الأبيات وعلق عليها موازناً بينها وبين أبيات أبى تمام فقال: « وهذا كله لفظ بارع ونسج كثيرُ الماء وقد اجتهد أصحاب أبى تمام فى إفساد قوله :

يخفى الزجاجة لونُها فكأنها ‏ فى الكفِّ قائمة بغير إناءِ

وقالوا : لو ملىء القدحُ دِبْساً أو لبناً أو نحو ذلك لخفى لونُ الزجاجة ، وهذا باطلٌ ، وقد بينت فساده فيما تقدم وأوضحته[1] .

والمعنى ليس مما اخترعه البحترى بل إنما أخذه من قول علىّ بن جبلة :

كأن يد النديم تدير منها ‏ شعُاعاً لا تحيطُ عليه كأس

أو من قول الآخر :

إنما لِقُحَتُنا موشُـــومة ‏ ضُمِّنَتْ حمراء ترمى بالزَّبَدْ
وإذا ما بُزِّلَتْ فى كأسها ‏ فهى والكأسُ معاً شىءٌ أحَدْ

وإنما اعتمد البحترى وهذان الشاعران أن يصفوا رقة الخمر ورقّة الإناء جميعاً ، وإلى هذا ذهب أبو تمام فى قوله « نارٌ ونورٌ قُيِّدا بوعاء » فسلك طريقاً آخر ، وما ذهب إليه هؤلاء أجودُ وأحسنُ ، وهو شىء تراه مشاهدةً » .

---

(١) الموازنة ـ ج ٣ ـ القسم الثانى ص ٦٠٢ ؛ وج ١ ص ٢٨ ، ٣١٣ ، ٣٨١
يقول الآمدى : « والمعنى عندى صحيح لا عيب فيه ولا قدح ، وذلك أن الرجل قد دل بهذا الوصف على أن شعاع الشراب (فى غاية الغلبة ، وأن الكأس) فى غاية الرقة ، واعتمد أن وصف الإناء وما فيه ووصف الهيئة على ما هى عليه » .
الموازنة ج ١ ص ٣٨١

وقد أنشد ثعلبٌ قول البحترى هذا فى أماليه ، وقال : إنه أخذ المعنى من قول الأعشى :

تُرِيكَ القذَى مِنْ دُونها وهْىَ دُونَه
إذا ذَاقَها مَنْ ذَاقَها يتمطَّقُ

وقال : إن هذا البيت أجودُ ما قيل فى وصف الخمر .

وقوله : « تنفّستْ فى أَوْجُهِ الأرْواح والأنداء » .

وإذا تنفّستْ فى أوجه الأرواح والأنداء وعبقت بها ، حَمَلَتْها وأشاعتْ روائحَها .

وقوله : « وفواقعٌ مثل الدموع تردّدَتْ » بيت بارع اللفظ حُلْوُ المعنى ، وقد اجتهد أصحاب أبى تمام أيضاً فى إفساده ، وقالوا : الدموع لا تتردّدُ فى الخدّ كما يتردَّدُ الحبابُ فى الكأس ، وإنما الدموع تجرى وتتابع ، وهذه معارضةٌ لا تلزَمُه ؛ لأن التردّد قد يكون الجولانَ ، وقدْ يكونُ التتابع ؛ لأنك تقول : « تتابعتْ رُسُلى إليك وتردّدتْ ، وتواترتْ كُتُبِى وتردَّدَتْ » وقد يجرى الُحبابُ فى الكأس إلى جهة واحدة كما يجرى الدمع فى الخد إلى جهة واحدة ، ويقف الدمع فى صَحْن الخد، كما تقف الحباب فى صحن الكأس، وما تشبيهٌ هو أليقُ ولا أحسَنُ من تشبيه حُمرة الخمر بحمرة الخدِّ وحمرة الخدّ بحمرة الخمر ، فإذا وُصِفَ الحباب فمِن أليق التشبيه أن يُشَبَّه بالدمع وهذا بيت فى غاية الحسن والصحة .

وقوله : « يستقيكها رَشأٌ بردُّها سَكْرى » مبالغة حسنة ومعنى فى غاية الملاحة .

ولستُ أُفضِّل أحدهما على الآخر فى هاتين القطعتين ، بل أجعلهما متكافئين »[1] .

---

(١) الموازنة ج ٣ - القسم الثانى ص ٦٠٢ - ٦٠٤

فهناك قصائد لـكل من أبى تمام والبحترى جاء الحديث فيها عن الرياض والأنوار ممزوجاً بوصف الشراب واللهو ومعاطاة النّدْمان وما يتصل بذلك ويدخل فى معناه ، وقد أورد الآمدى لأبى تمام ثلاث قصائد ومقطوعة من ثلاثة أبيات وقال : « وليس لأبى تمام من وصف الخمر ومعاطاة النُّدْمان شىء غير ما ذكرته ، والبحترى ملئ وفىّ بهذا الباب وما يتصل به ويدخل فى معناه »[1] .

١٠ — هناك من المآخذ ما يمكن أن يُوجّه إلى كل من أبى تمام والبحترى فيما يتعلّق بوصف الربيع ، فالصورة التى عرضها أبو تمام فى قوله :

من كل زاهرةٍ ترقرق بالندى فـكأنها عين إليك تحدّر

جانبه فيها التوفيق ؛ حيث شبه الشجرة الزاهرة التى تترقرق بين أوراق نَوْرها قَطرات الطل بالعين التى تحدّر دمعها .

وشتان بين منظر تبتهج به النفوس ، وتتفتّح له القلوب ، ومنظر آخر يبعث على الاكتئاب والملل ، ويثير الأسى والشجن .

إن اتحاد الجوّ النفسى المنبعث من طرفى التشبيه أمر يُلزمه مقتضى الحال ، فينبغى مراعاته ، والحفاظ عليه .

أما عن البحترى فيقول الآمدى : وسمعت من يعيب قوله :

كالرَّوْضِ مؤتلفاً بحُمرة نَوْره وبياض زهرته وخضرة عُشْبِه

ويقول : النَّوْر هو الأبيض خاصّة ، والزهر هو الأصفرُ لا محالة ، فإذا قلت : « فى هذا الروض أنوارٌ مختلفة » جاز ذلك ؛ لأنك تضم إلى البياض غيره من الألوان فيجرى الاسم على الجميع على سبيل المجاز ، كما يُقال :

---

(١) الموازنة جـ ٣ - القسم الثانى ص ٦٠٩

« العُمران » لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، و « القمران » للشمس والقمر وما أشبه ذلك .

وكذلك إذا قلت : « فيها أزهار كثيرة » جاز ذلك وإن كان فيها أبيض وأحمر وما سواهما مع الصفرة توسعاً ومجازاً ، فإذا فصلت معتمداً لأن تخص كل جنس باسم كما فعل البحترى لم يجز أن يُعدَل بكل جنس عن اسمه المخصوص فتقول حينئذ يُعجبنى من هذا الموضع صفرة زهره ، وبياض نَوْره ، وحُمرة شقائقه ، ولا يجوز أن تقول : يُعْجبنى حمرة نَوْره ، ولا بياض زهره كما قال البحترىّ ؛ لأن ذلك خطأ على ما استعملته العرب[1] » .

وقد دافع الآمدىّ عن البحترىّ ملتمساً له وجهاً من الصواب فقال : « ولعمرى إن هذا هو الأشهر فى كلامهم ، والأغلب فى المأثور عنهم إلا أنهم قد جعلوا الزهر نَوْراً ، والنَّوْر زَهْراً ، وجاء ذلك فى الشعر ، فقال أبو النجم :

فالروض قد نَوَّر فى دجوائه مختلفُ الألوان فى أسمائه
نوْر نهار الشمس فى حمرائه مُكلَّلاً بالنَّوْر من صفرائه

فقال : « بالنَّوْر من صفرائه » .

ثم ذكر شواهد أخرى وقال : « وهذا كُلّه دليل على أن هذه الأسماء تستعمل فى هذه الألوان كما ترى على اختلافها »[2] .

(١) الموازنة ١ / ٣٩٧ - ٣٩٨
(٢) الموازنة ١ / ٣٩٨ - ٤٠٠

١١ — انفرد البحترى بوصف الأبنية والبرك وما يتخللها من رياض زاهرة تجعل اقترانها بوصف الربيع حتما ولازما ، وفى هـذا يقول الآمدىّ : « ومما لم يقل فيه أبو تمام شيئاً وصْف الأبنية والبرك ،وقد قال البحترىُّ فى ذلك وأحسن كل الإحسان ، وأتى فيه من ذكر الرياض والمياه بما وجب أن يوصل بهذه الأبيات التى تقدمت.[1] » وفى هذا يقول البحترىّ :

تلَفّتُ من أعْلَىٰ دِمَشْقَ ودُونَنا
لُبْنَـــانَ هَضْبٌ كالغمام للعلَّق[2]

إلى الحيرةِ البيضاءِ والكرخ بعدما
ذَمَتْ مُقَـامى بين بُصْرى وجِلَّق[3]

إلى مَنْزِلٍ عِـــزّى ودارَىْ إقامتى
وقصْـــدِ التمانّى بالهوى وتشوّقى

مقاصـــيرُ مُلْكٍ أقبلتْ بوجوهها
على منظرٍ من عَرْضِ دِجْلة مُونِقِ

كأنّ الرياضَ الحُوَّ يُكْسَيْنَ حوْلَها
أفانينَ من أفواف وشْيٍ مُنَمّق[4]

---

(١) الموازنة جـ ٣ ـ القسم الثانى ص ٦٦٢ ـ والمراد بالأبيات التى تقدمت ما أورده فى وصف الرياض والأنوار والسحاب والأمطار .

(٢) فى الديوان ١ / ٩١ (من عليا) .

(٣) الحيرة البيضاء : مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة . الكرخ : اسم لجملة مواضع وكلها بالعراق .

(٤) الحوة : بالضم سواد إلى الخضرة أو حمرة إلى السواد . الأفواف : ثوب رقيق فيه خطوط على الطول وفى الديوان « ملفق » .

إذا الرِّيحُ هزَّتْ نَوْرَهُنَّ تضوَّعتْ
روائحه من فارِ مسْكٍ مفتّق[١]
كأنَّ القِبابَ البِيضَ والشمسُ طَلْقَةٌ
تُضاحِكُها أنصافُ بَيْضٍ مُفلَّقِ
ومِنْ شُرُفاتٍ في السماء كأنها
قوادِمُ بيضانِ الحمام المحلق

وقد علق الآمدى على هذه الأبيات بقوله :

« وهذا من الحسن والصحة كما تراه »[٢] . وهناك نماذج أخرى سبق ذكرها[٣] .

١٢ — وعن مآل الرياض ومصير نبت الربا والوهاد يقول أبو تمام :

ما كانت الأيامُ تُسلَبُ بهجةً لو أن حُسْنَ الروض كان يعمَّرُ

ويقول في موضع آخر :

إنَّ رَيْبَ الزمان يُحْسِنُ أن يُهْـ
ـدِي الرزايا إلى ذوى الأحساب
فلهذا يجفُّ بعد اخضرارٍ
قبل رَوْض الوهاد روض الروابي[٤]

---

(١) فأر : الواحدة فأرة ، وفارة المسك : نافجته أى وعاؤه .
(٢) الموازنة جـ ٣ - القسم الثانى ص ٦٦٣
(٣) فى ص ٥٠ ، ٥١
(٤) ديوان أبي تمام ٤ / ٤٣

ويقول البحترى :

لله أيامُنـــا ما كانَ أحسَنَها
لوْ أنّ دَهْراً ـ تَوَلّى ذاهباً ـ وقفا(١)

ويقول فى موضع آخر :

والأرض تخرج فى الوهاد وفى الرُّبا
عَفْوَ النبات وجُــلُّ ذلك يوبى(٢)

فهما متفقان على أن أيام السرور قصار ، وأن حسن الروض لا يُعمّر .

وكلاهما يكشف عن مصير نبت الربا والوهاد ، هـذا المصير المتمثل فى جفاف بعد اخضرار ، وهلاك بعد ازدهار .

بيد أن أبا تمام يوقفنا على ملحظ دقيق وهو عدْل الله فى تقسيم الحظوظ ؛ فروض الروابى كان له النصيب الأوفر من أشعة الشمس وضيائها مما جعله يفوق روض الوهاد نضرة وتفتحاً ، فـكان من العدْل الإلهى ، وسنن الله فى كونه أن يذْوى نبت الربا قبل الوهاد ، وبقدر ما كان الإسراع فى النضج والتمام يكون الإسراع فى التلاشى والنقصان ؛ فتمام النعمة بداية نقصانها :

إذا تمّ شىء بدا نقصُه ترقب زوالاً إذا قيل تم

إن وصف الربيع عند البحترىّ ، وإن اشترك فيه مع أبى تمام فى معان

---

(١) ديوان البحترى ٣ / ١٤٣٧

(٢) ديوان البحترى ١ / ٢٤٧ - يوبى من أوبأ المـكان أى كثر فيه الوباء وصار وبيئاً .

كثيرة إلا أنه يمتاز بحسن السبك ، وتتابع أجزاء الصورة ، ويشعرك بأن البحتري بينه وبين الربيع وشائج قربى ، وروابط صلة ، فهذا بالألوان يرصف الزهر ، وذاك بالألحان يرصف الشعر عذوبة ورقة ، وإحكاماً ودقة .

بيد أننا إذا أنعمنا النظر فى النصوص السابقة نجد أن كلا منهما قد أشعرنا ـ أحياناً ـ بالتمازج الكامل بينه ـ من ناحية أحاسيسه الباطنة القائمة ، وبين مظاهر الطبيعة المتألقة الباسمة(١) .

ومع ذلك هناك خط فاصل بين أبى تمام والبحتري ؛ فالأول بدا مثالياً عفيفاً يعرف للشتاء فضله وتأثيره فى الربيع ويقيم الأدلة على ذلك ، ورأيناه مُقتصداً فى استمتاعه بالربيع لأمرين : عوز ملح إلى المال كان يدفعه إلى التنقل والترحال ، ثم إدراكه أن أيام السرور قصار وأن حسن الروض لا يعمّر ، وهذا من شأنه أن يقلل من شأن الربيع فى نفسه كما قال الشريف الرضى :

سلّى عن العيش أنّا لا ندوم له وهوّن الموت ما نلقى من العلل(٢)

واقتصر أبو تمام فى استمتاعه بالربيع على الجانب المباح فلم يهم بالراح والأوتار ولم يرتد مجالس اللهو والسمر على نحو ما فعل البحترى بل اتخذ من تنوّع الفصول ، واختلاف أشكال الزهور دليلاً على قدرة الله عز وجلّ وبدائع صنعه .

---

(١) أوضحت ذلك ص ١٥ - ١٦ ، و ص ٤٨ - ٤٩

(٢) ديوان الشريف الرضى جـ ٢ ص ٦٨٣ ـ مؤسسة الاعلمى للمطبوعات ـ بيروت ـ لبنان .

أمّا البحترى فقد اعترف بفضل الشتاء ثم عاد فتنكر له بعد ذلك ، وقد رأيناه مُبْتهجاً ، مقبلا على الدنيا ، مفتوناً بالربيع ، وأسرف على نفسه فى ارتياد مجالس اللهو والسمر ووصف ما يدور فيها ، ومتع نفسه بجمال الطبيعة وجمال المرأة ونشوة الخمر فكان يهيب بالراح والأوتار ، ويحتسى من الخمر كبار الكؤوس ويملّى ناظريه بجمال الجوارى .

وخلاصة القول أن أبا تمام فى وصفه للربيع واستمتاعه به يمكن وصفه بأنه وقّ عفيف ضعيف ، أما البحترى فهو ملول، مغامر ومجاهر ، وأن أوجه التلاقى بينهما لم تكن تقليداً ، وإنّما كانت إبداعاً وتأثراً .

فى ختام هذا الفصل هناك رأى ولنا عليه تعقيب :

إذ يرى الدكتور / أحمد الخضراوى أن كلا من أبى تمام والبحترى قد تأثر فى شعره بذى الرمة واحتذى بعض صوره التشبيهية ، ومما عرضه فى ذلك قوله :

« فذو الرمّة يصف روضاً فيقول :

جاد الربيعُ له رَوْضَ القذاف إلى
قَوَّيْنِ وانعدلتْ عنه الأصاريم(١)
حتى كسا كل مرتادٍ له خَضِلُ
مُسْتحلَسٌ مثل عَرْضِ الليل يحْمُومُ(٢)

(١) له : لهذا الفحل . روض القذاف : موضع ، يعنى أصابه بجود المطر . قوين : موضع فى شق بنى تميم . انعدلت : مالت عنه . الاصاريم : جماعات الناس
(٢) خضل : رطب ناعم . مستحلس : كثير التراكم مثل الحلس وهو عرض الليل . واليحموم : الاسود .

وحْفٌ كأنّ الندى والشمسُ مانِعةٌ
إذا توقَّد فى أفنانِه التُّـــوم[١]

لقد تكاثف نبات الروض واشتدّت خضرته فبدا كأنه الليل تتشابك أغصانه تتعلق بها حبات الندى فتنعكس عليها شمس الضحى الصفراء الصافية فتبدو كأنها اللؤلؤ .

وأبو تمام يصف روضا أيضاً فيقول :

يا صاحبيّ تقصَّيـا نظريكما ... تريا وجوه الأرض كيف تصورُ
تريا نهاراً مشمساً قد شابه ... زهر الربا فكأنما هو مُقْمِرُ

لقد بهرته صورة ذى الرمة ولا بد أنه قد أعمل ذهنه كثيراً كى يحاكيها، يوحى بذلك نداؤه لصاحبيه وما يطلبه منهما ، ومعلوم أن كلا الأمرين خياليان إلا أنهما يدلان على إعجاب أبى تمام بصورته وإدلاله بها ويشيران إلى ما ذكرناه . فهو يطلب من صاحبيه أن يجتهدا فى النظر ليبلغا أقصاه كى تستجلى أعينهم جمال الطبيعة بذلك المكان ويتعجبا من تشكل الضوء على قمم الروابى ، فهذه شمس النهار فى أول طلوعها تنكسر أشعتها على بياض الزهر فيمتزج لونهما كأن هذا المزيج ضوء القمر .

عناصر صورة أبى تمام كعناصر صورة ذى الرمة هى النبات الكثيف وشمس الضحى الصفراء تنعكس عليه ثم الإتيان بمشبه به يصور ذلك ، وقد

---

(١) ديوان شعر ذى الرمة (غيــلان بن عقبة العدوى) عنى بتصحيحه وتنقيحه / كارليل هنرى هيس مارتنى ص 582 - 583 عالم الكتب. وحف : كثير . مانعة : مرتفعة . توقد : برق ولمع . التوم : الفضة .

عدّل أبو تمام فى صورته فجعل الشمس تنعكس على الزهر لا الندى كما صنع ذو الرمة إلا أنه قد ذكر الندى بعد صورته هذه فقال :

من كل زاهرة ترقرق بالندى فكأنها عين إليك تحدّر

فقطرات الندى تضطرب على أوراق النّوْر كأنها دموع تتحدّر ، وهذا يذكرنا بتعلق حبات الندى على أغصان ذى الرمة .

وكما احتذى أبو تمام تشبيه ذى الرمة فى تصويره الروض احتذاه تلميذه البحترى فقال :

كأن جنى الحوْذان فى رونق الضحى

دنانير تـــبرٍ من تُؤامٍ وفاردِ

يشبه نور الحوذان الأصفر تنعكس عليه شمس الضحى بالدنانير الذهبيّة والوجه هنا الصفرة الناصعة »(١) .

والذى أراه فى هذا الخصوص أن إعجاب أبى تمام بشعر ذى الرمة بل وتأثره به أيضاً أمر وارد بدليل قوله فى ملحمته الشهيرة فى مدح المعتصم :

ما ربْع ميّة معموراً يُطيفُ به غيلان أبهى رُبى من ربعها الخرب(٢)

بيد أن الصورة الفنيّة التى عرضها ذو الرمة فى وصْف الروض إنما تتمثل فى حبات الندى تتعلق بالأغصان وتنعكس عليها شمس الضحى فتبدو كأنها

---

(١) الصور التشبيهة فى شعر ذى الرمة (رسالة دكتوراه مخطوطة بكلية اللغة العربية بالقاهرة) للدكتور / أحمـــد مصطفى الخضراوى ص ٣٠٢ - ٣٠٤ - سنة ١٩٨٦ م

(٢) ديوان أبى تمام جـ ١ ص ٥٦

اللؤلؤ ، فى حين صور أبو تمام شمس الربيع قد اختلط بها بياض الزهر والأنوار فغلب ضوءها وصار النهار كأنه مقمر لا مشمس .

وأبو تمام يهدف من وراء ذلك إلى تقديم وصف دقيق لاعتدال الطقس ، وانكسار أشعة الشمس فى الربيع ، حتى ليخيل إليك أن الكون مستنير بنور القمر لا بضياء الشمس ، ويؤكد ذلك قول الصولى :

سألت أبا مالك عن هذا البيت فقال : يعنى أن الزهر من كثرته ، وتكاثفه ، وخضرته الضاربة إلى السواد ، وقد نقصت من ضوء الشمس حتى صارت كضوء القمر .

إذاً أبو تمام يشبه شمس الربيع فى انكسار أشعتها ، واعتدال حرارتها ، بضوء القمر .

وذو الرمة يشبه حبات الندى حين تنعكس عليها شمس الضحى باللؤلؤ فالصورة متباينة ، والجهة منفكة ، والغاية مختلفة .

وكون أبى تمام قد ذكر الندى بعد صورته هذه فقال :

من كل زاهرة ترقرق بالندى   فكأنها عين إليك تحدّر

إلا أنه لم يجعله من عناصر تلك الصورة على الإطلاق وإنما يفصله عنها بيتان آخران ، وحينما ذكره فى هذا البيت لم يلتمس له نظيراً فى حبات اللؤلؤ كما فعل ذو الرمة ، بل شبه الشجرة الزاهرة التى تترقرق بين أوراق نورها قطرات للطل بالعين التى يتحدّر دمعها ، وهى صورة مختلفة تماماً عما ذهب إليه ذو الرمة .

وفضلاً عن ذلك فإن تشبيه حبات الندى باللؤلؤ وإن كان وجيهاً إلا أنه

يعد من المعانى المشتركة أو المطروحة فى الطريق والتى لا تخفى على شاعر كأبى تمام .

وحتى الصورة الفنية التى عرضها البحترى فى قوله :

كأن جنى الحوذان فى رونق الضحى
دنانير تبر من تؤام وفارد

أستبعد أن يكون قد احتذى فيها تشبيه ذى الرمة فى وصف الروض ؛ لأن البحترى يشبه نور الحوذان حينما تنعكس عليه شمس الضحى بالدنانير الذهبية بجامع الصفرة فى كل ، بينما يشبه ذو الرمة حبات الندى حينما تنعكس عليها شمس الضحى باللؤلؤ ، فليس هناك من العناصر المشتركة بينهما سوى شمس الضحى ، وما بالشمس طالعة خفاء ، بهذا ينتهى الفصل الثالث والأخير .

الخاتمة

بعد أن فرغنا من تناول موضوعات هذا البحث نأتى إلى نهاية المطاف لنوجز ما سبق أن ذكرناه مُفصّلاً .

لقد احتوى هذا الكتاب على تمهيد تناولنا فيه تعاقب الفصول وترتيبها بدءاً بالشتاء فمروراً بالربيع والصيف وانتهاء بالخريف ورأينا فى هذا التعاقب ملمحاً له دلالته ، ورمزاً لطبيعة الحياة وتصويراً لمسيرتها ؛ فكما أن الربيع شهر ثرى وشهر ترى وشهر مرعى ، وتمام الربيع الصيف الذى يعقبه الخريف ، كذلك يُطوى سجل هذه الحياة بعد أخذها كُلّ زخرفها وزينتها .

إن من حكمة الله تعالى أن جعل لكل فصل مزيّة تخصه ، وفائدة لا تتحقق إلا به ، وإن كان الربيع يتبوأ منزلة عُظمى بين غيره من الفصول؛ فقد طاب أوانه ، وازدانت الدنيا بزينتها ، وغنّت الطير بعد عُجمتها .

وفى الفصل الأول جاء وصف الربيع عند أبى تمام ، وكان من أحسن ما صوره فيه التعبير عن أحاسيس الطير وهى تترنم فوق الأغصان ، وتتبادل رحيق الهوى فى سعادة وحبور .

إن الربيع - كما صوره أبو تمام - أفضل أوقات الزمان قاطبة ؛ فهو شباب الدنيا الفاتن البسام ، وكل ما فيه وكُلّ جوه حسن وبهاء ، وأصبحت الوهاد والرُبا تختال جميعها فيما ألبسها الربيع من حُلل تزهو بألوانها المصفرّة والمحمرّة كأنها البرود اليمنية والمضربة ، ناهيك عن الطقس -بصحوه وغيمه ،

وشمسه وقمره ـ فهو غاية فى الجمال ، وآية فى الاعتدال ، ومن هنا كان هذا الوقت من العام فرصة سانحة للتمتع والتأمل بعد شهور طوال قضاها الإنسان كادحاً فى طلب العيش وتحصيل الرزق .

وقد رأينا حرص أبى تمام على أن يعقد صلة بين الربيع والممدوح ، مفضلا الثانى على الأول ، ومثبتاً حيثيات هذا التفضيل ، ومن هنا يمكن القول بأن وصف الربيع عنده كثيراً ما كان توطئة للمديح ومدخلا من مداخله إلى الممدوح .

وجدير بالذكر أن وصف الربيع عنده لم يأت ممزوجا بوصف الخمر ومجالس اللهو إلا على قلة أو ندرة ، أمّا مجيئه ممزوجاً بوصف الأبنية والبرك فليس لأبى تمام شىء فى ذلك .

إن علاقة الربيع بغيره من الفصول عند أبى تمام إنما هى علاقة انسجام وتكامل ، لا انفصام وتفاخر ، ولكنه مع ذلك يُنزل الربيع منزلته ؛ لأنه يُهدى إلينا البشاشة والنور ، ويجعل عالمنا الأرضىّ مراحاً للسرور ، ولكن تنعم أبى تمام بجمال الطبيعة فى الربيع قد حال دون اكتماله أمران :

أولهما ـ عوز مُلحّ إلى المال كان يدفعه إلى التنقّل والترحال .

ثانيهما ـ إدراكه أن أيام السرور قصار ، وأن حسن الروض لا يُعمّر ، ومن هنا كان أسفه على فوت الربيع لا يوصَف ، بل كان يأسى عليه قبل فواته .

وقد أجرى العقاد موازنة سريعة بين أبى تمام والعوضى الوكيل وشاعر الهند تاجور تتعلق بعالم الزهر والنَّوْر ، فانتهى منها إلى أن أبا تمام أروع الثلاثة .

تناول الفصل الثانى وصف الربيع عند البحترىّ فكان لهذا الفصل منزلة خاصّة عنده لا ترق إليها منزلة فصل آخر ، بيد أن حبّه للربيع كثيراً ما يكون مرده إلى الصلة الوثيقة بين الربيع والممدوح ، والشبه القوىّ بينهما ؛ فهو يُعدُّ الربيع أخاً لممدوحه فى دلائل إثماره ، وكثرة إنعامه ، ومن هنا يكن له حُبّه وتقديره ، فهو لا يصف الربيع لذ ته ـ غالباً ـ وإنما يجعله ـ كما فعل أبو تمام ـ توطئة للمديح ، ومدخلا من مداخله إلى الممدوح ، وقد بدا ذلك واضحاً فى قصيدته التى مدح بها أحد قواد الخليفة المعتصم ، وكان أحد مداخل الشاعر إلى ممدوحه أن الربيع يشارك فى التعبير عن هذا الثناء حين يطلق كل عناصر وجوده الجميلة تقديراً للممدوح : (أتاك الربيع الطلق . . .) فليست هـذه الأبيات وصفاً للربيع لذاته وإنما هى استغلال طاقات الشاعر فى التعبير عن ولائه للممدوح ، فالربيع قد أتى مختالا ببهائه ، مقدماً ألوان جماله للممدوح حباً وتقديراً ، وقد صور البحترى الربيع عروسا تختال ضاحكة ، وتتفتح لمقدمها الورود وتلبس الأشجار أنضر اللباس ، وترق النسمات ، ويختفى كل ما فى الدنيا من قذى وعبوس .

وقد حرص البحترى على ارتياد مجالس اللهو والسمر وبخاصة فى زمن الربيع فوصف هذه المجالس ، وما كان له فيها من عبث ، وأرانا من نفسه شاعراً ماجنا غير عابىء بكبر سنه ، مغتنما أوقات الربيع فى اللهو والمرح ؛ حيث ازدانت الأرض بشقائق النعمان ، وتبدلت الأيام فإذا هى ظراف ناضرات حسان ، وعُنى البحترىّ بوصف الربيع فى غير مكان ، فرأيناه يتعجب من مشاهد الربيع فى « بِطياس » وكأنها ضروب من البرود أو زرابى تنتمى إلى عالم الجنّ ؛ لما فيها من نبات وأزهار تختلط أشكالها وتتعدد ألوانها .

ووقف على مشاهد الربيع بذى الأراك فوصف نسوة مشين فيه وشبه قدودهن بالأغصان ، وثيابهن بوشى الربى ، وخدودهن بورد الرياض ولكنه اعترف فى موضع آخر بأن ورد الربيع وجُلّناره أبهى من الخدود الحسان .

ومن أبدع ما صوره من مشاهد الربيع هذه اللوحةُ الفنية الساحرة التى يُصوِّر فيها معالم الرياض الخضر وما فيها من أزهار فاتنة ، وورود حُمر جاسدة تنبعث منها ليلا ريح طيبة تذكره أنفاس الأحبة ، وتُعرف هذه الورود بشقائق النعمان ، وحينما ينزل عليها قطرات الطل فإنها تشبه دموع التصابى فى خدود الخرائد .

وقد عُنى البحترى بوصف الأبنية والبرك ، وما يتخللها من رياض زاهرة تجعل اقترانها بالربيع أمراً واجباً ، فوصف قصر ابن المعتز المعروف بـ « الكامل » وما يمتد أمامه من بستان أنيق ، وما يجرى فيه من مياه دجلة المفضضة ، ومن نسيم الصَّبا الحانى ، كما وصف « الصبيح والمليح » قصرىْ المتوكل ، وأبدع فى وصف بركة أقامها هذا الخليفة بأحد قصوره فكانت فتنة للناظرين ، وفى وصفها تحدث عن السمك المحصور فيها ، والصحن الممتد فى أسفلها ، والبهو الممتد فى أعاليها ، وتمثال الدُّلفين الذى كان مُقاماً عليها ، والبساتين والرياض التى تحف بها ، والأزهار التى تشبه ريش الطواويس فى تلاوينها العجيبة .

وفى كل ما عرضه البحترى من ملامح الربيع كانت نفسه مشرقة ، وبالحيوية مفعمة ، بيد أنه قد عرض لنا فى النهاية صورة رأينا فيها التمازج الكامل بينه من ناحية أحاسيسه الباطنة القاتمة ، وبين مظاهر الطبيعة المتألقة

الباسمة ، فهى تختلف إلى حد كبير عن الصور التى عرضناها عنده سابقاً ، فالأخيرة هذه تزاحم الألوان القاتمة فيها الألوان الزاهية ، وتطل من خلال البسمات ومضات دموع ، وتسمع فيما بين هـذا الموكب المرح أنات خافتة ، وتعبر سماء هذا الأفق الضاحك سحابات حزن وأسى .

الفصل الثالث والأخير يتضمّن موازنة بين أبى تمام والبحترى تتعلق بوصف الربيع ، وقد استُهِلّ هذا الفصل بموازنة عامة وسمت بطابع الإجمال وتضمّنت آراء بعض النقاد وعلى رأسهم الآمدى ولم يكن لنا فيها من جُهد سوى أمانة النقل ، والتعليق الموجز على ما أورده ابن درستويه ، وقد انصبت هذه الآراء فى مجملها على أبيات محـــددة لأبى تمام ، ومثلها للبحترى ، ومن هنا كان لابد من عقد موازنة تفصيلية توضح أوجه الاختلاف والاتفاق ومواطن الإبداع والإخفاق فيما أثر عنهما من نصوص تتعلق بهذا الخصوص ، وقد تضمت هـذه الموازنة نقاطاً عدة تغطى مجالات مختلفة تتعلق بوصف الربيع عند أبى تمام والبحترى فشملت الاعتراف بفضل الشتاء وتأثيره فى الربيع وجاء ذلك عند أبى تمام نصاً وصريحاً وأدخل فى المثالية وأدل على الوفاء منه عند البحترى ، كما شملت التعبير عن فرح الطبيعة بقدوم الربيع ورأينا قول البحترى فى هذا الخصوص فيه من الحيوية والطلاقة أكثر مما فى قول أبى تمام وبخاصة حينما يُحمل المعنى فيهما على الحقيقة ، كما تناولت تأثير الربيع فى السكون مجيئاً ورحيلا فرأى أبو تمام أنه لو دام حسن الروض لدامت بهجة الأيام ، ولـكن حُسْن الروض لا يُعمّر وبهجة الأيام لا تدوم ورأى البحترى فى الربيع قرة للعيون وفتنة للناظرين ، وبمقدمه يختفى كل ما فى الدنيـا من قذى وعبوس ، وقد نهم من قول أبى تمام والبحترى فى هـذا الخصوص أن الربيع هو مصدر البهجة ومنبع الجمال ،

ولكن الأمر ليس كذلك ؛ لأن الإنسان ذاته هو مصدر هذه البهجة ؛ فالربيع يشرق فى النفوس قبل إشراقه فى المروج والرياض .

ثم تناولت الموازنة تصوير الطقس واعتدال المناخ فاتفق الشاعران على أن أوقات الربيع أجمل أوقات العام قاطبة ، بيد أن صورة الطقس وعناصر المناخ بدت مكتملة عند أبى تمام أكثر منها عند البحترى ؛ لأسباب بيناها فى موضعها ، وقد اتفق الشاعران فى الدعوة إلى التمتع بأوقات الربيع ، ولكن جاء الفرق بينهما عميقا والبون شاسعا ؛ فأبو تمام يرى الدنيا فى غير أوقات الربيع ميدان سعى وكدح ، فإذا ما حل الربيع كان فرصة لالتقاط الأنفاس والتمتع بمناخه المعتدل ورياضه الغناء ، وبدا أبو تمام مقتصداً إلى حد كبير فى ارتياد مجالس اللهو أثناء الربيع أما البحترى فقد أسرف على نفسه فى ارتياد هذه المجالس هو وأقرانه ، ووصف ما يدور فيها فكانت متعته بالربيع لا تقتصر على الحد الذى صوره أبو تمام بل رأيناه يهيب بالراح والأوتار ؛ ويحتسى من الخمر كبار الكؤوس ، ويملى ناظريه بجمال الجوارى .

وقد حرص كل من أبى تمام والبحترى على أن يجعل من وصف الربيع توطئة للمديح ، وأن يشبه ممدوحه بالربيع ويتخذ من جمال الطبيعة فيه رمزاً لممدوحه فى عظم حسنه ووفرة عطاياه ، فكما أن الربيع يكثر خيره ويعم نفعه فكذلك الممدوح بيد أن أبا تمام حرص على أن يظهر تفوق الممدوح على الربيع خَلْقا وخُلُقا مما جعل ذكره على مرّ الليالى باقيا ، فى حين وقف البحترىُ عند حدّ التسوية والمؤاخاة بينهما ، وعلى غرار ذلك عقد الشاعران كلاهما شبها بين ورد الربيع والغيد الحسان وإن كانت الوردة مشبهة عند

أبى تمام ومشبهاً بها عند البحترىّ معترفاً فى بعض أبياته بأن ورد الربيع وجُلّناره أبهى من الخدود الحسان .

وقد اختلط عند أبى تمام وصْف الرياض والأنوار بوصف الخمر ومجالس اللهو ومماطاة الندمان فى قصائد قليلة أوردها الآمدىّ ولم يكن لأبى تمام فى شىء منها معنى مخترع ، وإنما اتبع فيها كلها مذاهب الناس ، أما البحترىّ فقد توسّع فى هذا الباب فجاء وصْف الربيع عنده مصحوباً ـ فى مواضع كثيرة ـ بوصف مجالس اللهو والشراب فهو كما قال الآمدىّ : « ملىّ وفىّ بهذا الباب وما يتصل به ويدخل فى معناه » .

وقد عُنى أبو تمام بوصف مشاعر الطير وترنّمها فى الربيع وأبدع فى ذلك متفوقاً على كل من البحترىّ وابن الرومى ، مما يجعله شاعراً لا يُبارى فى هذا الخصوص .

انفرد البحترىّ بوصف الأبنية والبرك وما يتخللها من رياض زاهرة تجعل اقترانها بوصف الربيع حتما ولازماً ، وقد أحسن كل الإحسان فى ذلك ، أما أبو تمام فلم يقل شيئاً فى هذا الخصوص ، وأخيراً تحدّث الشاعران عن مصير نبت الربا والوهاد ، هذا المصير المتمثل فى جفاف بعد اخضرار ، وهلاك بعد ازدهار ، وإن كان أبو تمام قد أطلعنا هنا على ملحظ دقيق وهو عدْل الله فى تقسيم الحظوظ ؛ فروض الروابى كان له النصيب الأوفر من أشعة الشمس وضيائها مما جعله يفوق روض الوهاد نضرة وتفتُّحاً ، فكان من العدل الإلهى وسنن الله فى كونه أن يذوى نبت الرُّبا قبل نبت الوهاد ، وبقدْر ما كان الإسراع فى النضج والتمام يكون الإسراع فى التلاشى والنقْصان ، فتمام النعمة بداية نقصانها ، وسبحان من يُغيّر ولا يتغيّر !

بهذا تتوقف رحلتنا ، وتنتهي مسيرتنا مع وصف الربيع بين أبي تمام والبحتري وقد كان فيها لكل منهما لمحات تأملية خرج منها البحتري وهو على يقين بأن فائت الشباب لن يعود وإن أعاد الربيع إلى الطبيعة جمالها وابتسامها ، كما خرج منها أبو تمام وهو على يقين بأن حسن الروض لا يعمّر ، وبهجة الأيام لا تدوم ، وأن المتفرّد بالبقاء وحده هو الله الذي يُغيّر ولا يتغيّر ، ويُجير ولا يُجار عليه .

نسأل الله العظيم أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا ، ونور صدورنا ، وجلاء أحزاننا ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

(المصادر والمراجع)

أولا — بالعربية :

(ا) المطبوعات :

(١) الأدب فى عصره الذهبى للدكتور / عبد الرحمن عثمان ـ مطبعة المدنى ـ ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٣ م .

(٢) إيليا أبو ماضى شاعر المهجر الأكبر شعر ودراسة ازهير مرزا ـ دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٦٣ م .

(٣) الخيال الشعرى فى شعر الوصف عند البحترى للدكتور/طه مصطفى أبو كريشة ـ دار النمر للطباعة ـ ط ١ سنة ١٤٠٣ هـ .

(٤) ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى ـ تحقيق/محمد عبده عزام ـ ـ طبعة دار المعارف بالقاهرة .

(٥) ديوان أبى نواس ـ ضبط معانيه وشرحه ـ إيليا الحاوى ـ منشورات دار الكتاب اللبنانى ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٨٣ م .

(٦) ديوان البحترى ـ تحقيق / حسن كامل الصيرفى ـ دار المعارف بالقاهرة ـ

(٧) ديوان ابن الرومى ـ تحقيق الدكتور/حسين نصار ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٨١م

(٨) ديوان الشريف الرضى ـ مؤسسة الأعلمى للمطبوعات ـ بيروت ـ لبنان .

(٩) ديوان شعر ذى الرمّة (غيلان بن عقبة العدوىّ) ـ عُنى بتصحيحه وتنقيحه / كارليل هنرى هيس مارتنى ـ عالم الكتب .

(١٠) ديوان الصّنوبرىّ ـ حققه الدكتور/إحسان عباس ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٩٧٠ م

(١١) ديوان امرئ القيس ـ تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم ـ الطبعة الثانية ـ دار المعارف ١٣٣٥هـ

(١٢) الربيع فى الأدب والفن والحياة ـ مصطفى عبد الرحمن ـ مكتبة الأنجلو .

(١٣) رسائل أبى العلاء المعرّى ـ طبعة مكتبة المثنى ببغداد .

(١٤) زهر الآداب وثمر الألباب لأبى إسحاق الحصرى ـ تحقيق وشرح على محمد البجاوى ـ الطبعة الثانية ـ الحلبى .

(١٥) شعر الطبيعة فى الأدب العربى ـ الدكتور / سيد نوفل ـ الطبعة الثانية دار المعارف .

(١٦) العصر العباسى الأول ـ للدكتور / شوقى ضيف ـ الطبعة التاسعة ـ دار المعارف .

(١٧) العصر العباسى الثانى ـ للدكتور / شوقى ضيف ـ الطبعة الثالثة ـ دار المعارف ـ ١٩٧٣ م .

(١٨) العقد الفريد لابن عبد ربه ـ تحقيق/محمد سعيد العريان ـ دار الفكر ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٣٥٩ هـ .

(١٩) القاموس المحيط للفيروز آبادى .

(٢٠) الكامل فى اللغة والأدب لأبى العباس محمد بن يزيد المبرِّد ـ عارضه بأصوله وعلّق عليه / محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة .

(٢١) لسان العرب لابن منظور .

(٢٢) مجمع الأمثال لأبى الفضل الميدانى ـ تحقيق/محمد أبو الفضل إبراهيم ـ ط الحلبى .

(٢٣) المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ/عباس محمود العقاد ـ المجلد الخامس والعشرون (الأدب والنقد) ـ دار الكتاب اللبنانى ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م .

(٢٤) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء للراغب الأصبهانى ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٩٦١ م .

(٢٥) الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى ـ للآمدى ـ تحقيق/السيد أحمد صقر ـ الطبعة الثانية ـ دار المعارف ـ ١٣٩٢ هـ .

(٢٦) الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى للآمدى ـ تحقيق / الدكتور عبد الله حمد محارب ـ الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ .

(٢٧) النقد الأدبى ـ أحمد أمين ـ الطبعة الخامسة ـ ١٩٨٣ م ـ النهضة المصرية .

(٢٨) النقد الأدبى: أصوله ومناهجه للأستاذ/ سيد قطب ـ الطبعة السادسة ـ ١٤١٠ هـ .

(٢٩) نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى ـ نسخة مصوّرة عن طبعة دار الكتب .

(٣٠) الوساطة بين المتنبى وخصومه للقاضى الجرجانى ـ تحقيق / محمد أبو الفضل ، وعلى محمد البجاوى ـ الحلبى ـ ١٩٦٦ م .

(ب) المخطوطات :

(٣١) الصور التشبيهية فى شعر ذى الرمّة (رسالة دكتوراه) مخطوطة

بكلية اللغـة العربيـة بالقاهرة ـ للدكتور / أحمـد مصطفى الحفراوى سنة ١٩٨٦م

(جـ) الدوريات :

(٣٢) مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة ـ العدد الثامن ـ ١٤١٠ هـ .

ثانياً : بالإنجليزية :

(33) The golden Treasury of the best Songs and Lyrical Poems in the English Language - Selected and arranged by Francis Tuaner Palgrave with a fifth book - selected by John Press - Oxford University Press -

(34) Alittle Treasury of English Poetry - Edited by Rashad Rushdy - Anglo - Egyptian Bookshop 4 th Edition - 1970 - Printed by Dar wahdan Press.

ملخص بالإنجليزية

(Summary)

Thus Our Journey Comes to an end With description of Spring between Abu - Tammam and Al - Bohtory.

At this Journey the two Poets had a glance of Scrutiny:

Al - Bohtory had Known that the Past days of youth Can not Come back even though the Spring returned to the nature Its beauty and Smile.

Abu - Tammam had Known Well thatboth beauty of gardens and delight of days do not go on and that Allah Only who Can change and Can Never be Changed.

We Pray to Allah to make the Qurản Spring of our hearts. Light of our breasts and removal of Our Sadness, and the Conclusion of Our Prayer Will be :

Praise be to Allah, Lord of The World.

The Second Chapter is talking about Al - Bohtory,s description of Spring.

He Sees that this Season has a Special rank among the Seasons of the year.

He announces That he loves Spring because he Considers it a brother to the Praiseworthy Person (One of the Caliph Muatasem,s leaders) .

Also he Sees that as Soon as Spring Comes All dust and Scowl disappear from the Universe and every thing blooms in the nature and the earth is decorated by the different Flowers and the days become most beautiful .

Al - Bohtory Sees the drops of Wet above the red Flowers Look like the tears on the Cheeks of the beautiful ladies but He Sometimes Prefers Flowers of Spring to the Cheeks of the beautiful ladies and he Considers the breaze ef Wind as the Fragrant the breathes of lovers.

Al - Bohtory describes Spring in many Places Such as Damascus, Al - Mawsel, Betias(1) and Zul - Arak also he describes many buildings which are surrounded by gardens such as Al - sabeeh and Al - Maleeh which were two Palaces For Al - Wutawakel.

The Third Chapter includes a Comparison between Ahu - Tammem and Al - Bohtory in respect of the description of Spring.

There is a general Comparison including viewPoints of Some Critics about Some Lines of verse of Abu - Tammam and Al - Bohtory.

After that there is a detailed Comparison including many Points Such as the Confession of Winter,s Favour and its effect On Spring, the expression about the joy of nature by Coming of Spring· the description of temperate Climate, the invitation to enJoy the Season of Spring, Comparison of Spning,s Flowers to the beaatiful ladies, Finally tha Fate of Plants and Flowers of hills and levels. this Fate Which is drying after green end destruction after Flourishment.

---

(1) A town near From Halab·

Summary

The description of Spring between Abu-Tammam and AlBohtory is the subJect of this research, It includes on introduction, three Chapters and a short Conclusion.

The introduction talking aobut two things :

The First is the Connection between Abu - Tammam and Al - Bohtory and It shows that the second was a student for the First and he was affected by him.

The second thing is the rank of the season of spring among Tbe other seasons. it is the best of them.

The first chapter is talking about Abu - Tammam,s description of spring.

He says that the Plentiful trees veil the Flower and when the breath moves this Flower, it appears Sometimes and disappears at other times, like a virgin who Collects her Courage to appear in Front of other People and the shame Prevents her to do So at other times.

He is talking about the beautiful nature during spring, singing of the Pretty birds on the branches of trees, The Climate is more temperate and the light of the Sun looks like the light of the moon. there is neither hot nor Cold and if the rain Comes down it will Stay for a short time. So that the weather is more lovely and more temperate.

During his description of spring. Abu - Tammam show Us that he Is an ideal Poet because of his admiration of spring does not make him forget the Favour of winter when the earth was barren but when the rain Fell dOwn, it did thrill, Swell and grew (Produced) lovely Kind Plants.

Also we sometimes See him Sad and tired, nevertheless he asks the birds to enJoy spring and sing on the trees and he Congratulates them.

Finally he Sees in the Variety of Flowers a Strong Proof about the might of Allah who Can Change and Can never be Changed.

الفهرس

استدراك

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٩	١٤	زمن من الربيع	زمن الربيع
١٨	٢	فيختتل	فيختيل
٢٠	١	فثفين	فثنين
٢٠	٥	أخصر	أخضر
٢٥	٥	ما حد	ما جد
٢٥	١١	فلم يستوله	فلم يستو له
٢٦	١٧	ص ٢١ من الكتاب	ص ١٩ من الكتاب
٢٨	الأخير	راجع ص ١٨	راجع ص ١٦
٣٣	١٣	حوك الربيع وزهرة الصهباء	حوك الربيع وحلة صفراء
٣٣	١٤	اشرب	فاشرب
٣٣	الأخير	نفسه ١/٦ ـ ٧	ديوان البحترى ١/٦ ـ ٧

رقم الإيداع ٨٦٦٣/١٩٩٦
I.S.B.N. 977 - 19 - 1344 -1 الترقيم الدولى